أروع القصص العالمية

بلاك بيوتي

المهر الأسوَد

أكاديميا

أروع القصص العالمية

بلاك بيوتي المهر الأسود

أكاديميا

هذه المجموعة من روائع الأدب العالمي الكلاسيكية توفّر للقارىء متعةً تجعله يعيش في عالم من الإثارة والتشويق والخيال، ومرجعاً أدبياً يعين الطالب في فهم مميزات الرواية الكلاسيكية والحبكة الدرامية.

في عام 1877 نُشرت رواية بلاك بيوتي التي ألّفتها أنّا سيويل قبل سنة من وفاتها. تروي القصة حكاية حصان عاش في إنكلترا إبّان العصر الڤيكتوري، وفيها يروي الحصان قصّة حياته التي عاشها في ظلّ انتقاله بين عدد من المالكين وساسة الخيل المختلفي الطباع.
ينجو بلاك بيوتي من الفيضان والحريق ويتعافى من الحمّى ويصل إلى شفير الموت. ومع ذلك، يُساق ثانية للبيع إلى مالك آخر.

في هذه السلسلة

- فرانكنشتاين
- الدكتور جيكل ومستر هايد
- دراكولا
- شبح الأوبرا
- 20 ألف قدم تحت الماء
- رحلة إلى باطن الأرض
- جزيرة الكنز
- روبنسون كروزو
- الحديقة السرية
- أوليڤر تويست
- نداء البراري
- بلاك بيوتي- المهر الأسود



أروع القصص العالمية

بلاك بيوتي

المهر الأسوَد

كتبها بتصرُّف

بولين فرانسيس

ترجمة

فدى بركة

أكاديميا

بلاك بيوتي (المهر الأسود)
حقوق الطبعة العربية © أكاديميا انترناشيونال 2007
ISBN: 978-9953-37-423-9

Black Beauty

First published by Evans Brothers Limited (a member of the Evans Publishing Group)
2A Portman Mansions, Chiltern Street, London W1U 6NR, United Kingdom

Academia International أكاديميا انترناشيونال
P.O.Box 113-6669 ص.ب.
Beirut - Lebanon 1103 2140 بيروت – لبنان
Tel (961 1) 800811-862905 -800832 هاتف
Fax (961 1) 805478 فاكس
E-mail: academia@dm.net.lb بريد الكتروني
www.academiainternational.com
أكاديميا هي العلامة التجارية لأكاديميا إنترناشيونال
ACADEMIA is the Trade Mark of Academia International

بلاك بيوتي
المُهر الأسوَد

الفهرس

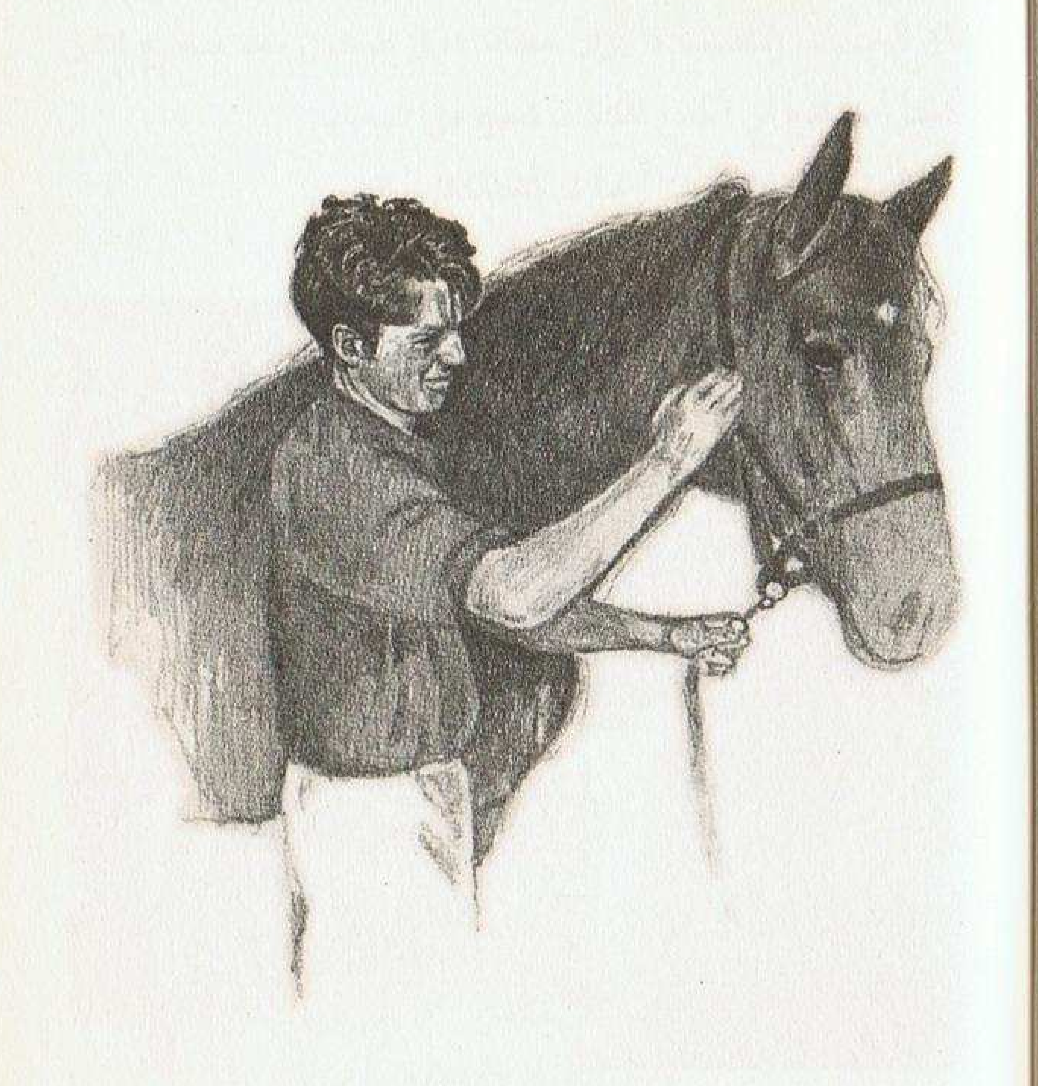
المقدّمة

وُلِدَتْ أنّا سيويل Anna Sewel سنة 1820 في غريْت يارموث بإنكلترا. وكانت منذ صِغرِها تركب الخيل في مزرعةِ عمِّها في نورفولك Norfolk لكنّها غالباً ما كانت مريضةً وكان عليها أن تلازِمَ الفراشَ. وقد خطرَتْ لها فكرةُ هذه القصّةِ عندما كانت في الخمسين من العُمرِ لكنّ المرضَ كان قد اشتدَّ بها، فكان على والدتِها أن تكتبَها لها.

في أيامِنا هذه، نركبُ الخيلَ للتسليةِ فقط، لكن في القرنِ التاسع عشر، كانت الخيول تجرُّ العرباتِ أو مركباتِ الأجرةِ ويمتطيها الرجالُ في رحلاتِ العملِ. وكانت صِحتُها وسعادتُها تعتمدُ كُلياً على مالكيها وسائسيها.

لطالما صُدِمَتْ أنّا سيويل بالقساوةِ التي كان يُعامِلُ بها الناسُ الخيولَ في العملِ. وقد كتبَتْ هذه القصّةَ لتلفتَ الانتباهَ إلى ظروف عملِها البائسةِ في إنكلترا. وكان عنوانُ الكتابِ الكاملِ: "بلاك بيوتي، سائسه ورفاقه؛ سيرة حصانٍ ذاتية". ترجمَتْها أنّا سيويل عن لغةِ الخيولِ الأصليّة. وقد ادّعَتْ أنّا سيويل أنّها ترجمَتْ قصّةً خاصة عن حصان لتتمكّنَ من الكتابةِ من وجهةِ نظرِ الحصان. فيشعُرُ القارئُ بشعورِ الخضوع لسائسٍ أو مالكٍ.

نُشِرت قصّةُ "بلاك بيوتي" سنة 1877، أي قبلَ وفاةِ أنّا بعامٍ واحد فقط. فلم يطُلْ عمرها كي ترى النجاح الذي لاقته. وقد تُرجِمَ كتابُها إلى العديدِ من اللغاتِ وأُنتِجَ من قصته فيلمٌ أيضاً.

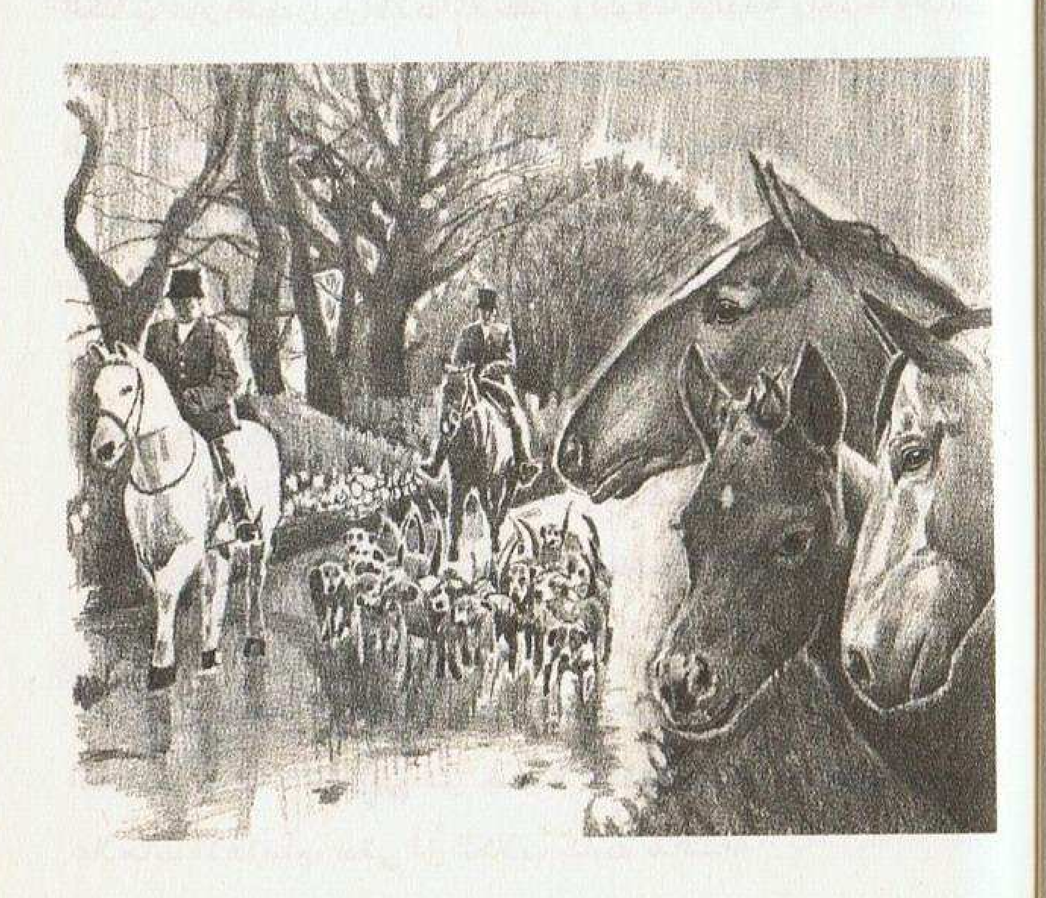


الفصل الأول

حين كنتُ يافِعاً

في أحدِ الأيامِ الأولى من فصلِ الربيع أدركْتُ للمرّةِ الأولى أنّ الحياةَ قاسيةٌ، وكنتُ لا أزالُ أعيشُ مع والدتي في مروجِ "فارمير غراي". كان الضبابُ الخفيفُ لا يزالُ معلّقاً فوقَ الحقولِ بعد صقيعِ الليلِ. وكنتُ أستطيعُ أن أسْمعَ الكلابَ تنبحُ في البعيدِ.

قالَ أحدُ أصدقائي : " ها قد أتَتْ كلابُ الصيدِ."



فركضْنا جميعاً إلى أعلى الحقلِ ونظرْنا من فوقِ السِّياجِ الشَّجَرِيِّ الصغير.

شرحتْ والدتي لي الأمرَ قائلةً : "لقد وَجَدوا أرنباً برِّياً، وإذا أتوا بهذا الاتِّجاه، فسوفَ نرى الطَّريدة."

وسُرعانَ ما رأيتُ كلاباً صغيرةً تمرُّ بين السنابلِ في الحقلِ المجاورِ يتبعُها رجالٌ يَمْتَطُون جيادَهم. لم تَكُنِ الكلابُ تنبحُ أو تَعْوي أو تُصْدِرُ أنيناً، بل كانت تُطلِقُ أصواتاً خافتةً. ثمّ توقفتْ فجأةً وبدأَتْ تركضُ وتدورُ وتدورُ وهي تتلمَّسُ الأرضَ بأنوفِها.

وفي تلكَ اللحظةِ تماماً، رَكَضَ أمامَنا أرنبٌ بريٌّ مذعورٌ. فقفزَتِ الكلابُ فوقَ الجدولِ وأخَذَت تُلاحقُه. وسمِعْنا صيحةً واحدةً، وكانت تِلكَ نهايتَه. صَعِدَ الصيّادون نحو الكلابِ وأمسكوا الأرنبَ البرّي الميتَ وبدوا فخورين جداً بأنفسِهِم.

صُدِمْتُ كثيراً لما حدَث.

بعدَ بضعِ دقائقَ، سمعتُ ضجّةً آتيةً من المنحدرِ المؤدّي إلى الجدولِ. فالتفتُّ لأرى مصدرَها فإذا بحصانٍ ممدَّدٍ على العُشْبِ يئِنُّ وبقُربِهِ صبيٌّ مُلْقى على الأرض.

قالَتْ أمّي : "لقد وَقَعَ أحدُ الفرسان وانكسرتْ رقبتُه."

فقالَ أحدُ الأحصنةِ اليافعةِ : "إنّه يستحقُّ ذلك."

قالَتْ أمّي بلُطف: "آه، لا يجبُ أن تقولَ ذلك".

كان مالِكي الآن يرفعُ الفارِسَ عن الأرض. وكانت يدا هذا الفارس ورأسه تتدلّى من جَسَده. وقد بدَتْ على وجوهِ الجميع علاماتُ الاهتمام، حتى أنَّ الكلابَ كانت هادئة.

فقال سيّدي آمراً: "احملُوه إلى منزلي! وأحضِروا الطبيبَ. وليذهَبْ أحدُكُم إلى منزلِ سكواير غوردون ليُخبرَه أنّ ابنَه قد أُصيبَ."

ولم نتذكّرِ الحصانَ الصغيرَ إلا عندما أتى طبيبُ الخيل وعايَنَهُ ثم قال: "قدمُه مكسورةٌ!"

ثم أخرجَ مسدّسَهُ وأطلقَ النارَ على الحيوانِ المسكين.

فقالَتْ أمّي بهدوء : "إنني أعرفُ هذا الحصان منذُ سنوات، وهو يُدْعَى روب بوي. وقد كان حصاناً طيّباً وشجاعاً."

ثم أخذَتْ تَنتَحِبُ بصوتٍ مرتفِع.

ثمّ ناحَتْ قائلَةً : "لن آتي إلى هذا القسمِ من الحقل بعدَ الآن."

تُوفّيَ ابن سكواير غوردون أيضاً ذاك اليوم، وتمّ دَفنُهُ بعدَ بضعةِ أيام.

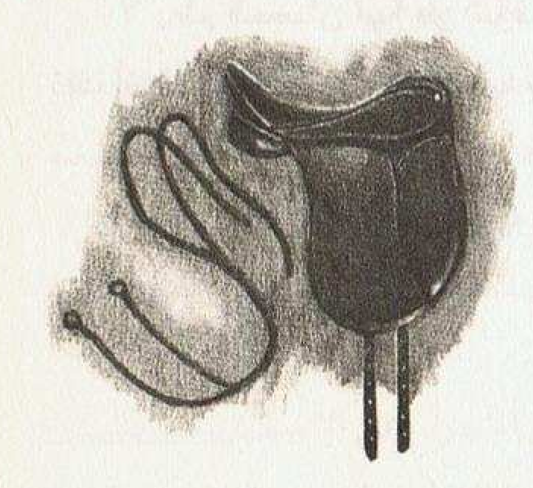
وفكّرتُ في نفسي قائِلاً: "كلّ هذا بسببِ أرنبٍ برّيٍّ صغير."

كبِرتُ حتى أصبحتُ حِصاناً وسيماً. ولدى بلوغي سنَّ الرابعة تقريباً، كان وَبَري قد أصبحَ جميلاً وناعِماً وكان لونُهُ أسودَ برّاقاً.

وكان لديّ قَدَمٌ بيضاءُ ونَجْمةٌ بيضاءُ على جَبيني ولطخةٌ بيضاءُ على ظهري.

في أحدِ الأيامِ، أتى سكواير غوردون لينظُرَ إليَّ، وقالَ لمالكي :

"سوفَ يلائمُني تماماً بعد أن تنتهي من ترْويضِه."



أتـعـرفُ مـا مـعنـى أن يروِّضَ أحدُهُم حصـانـاً؟ يَعني أن يُعوِّدَ الحصانَ ارتداءَ السرجِ واللجامِ وحَمْلَ شخصٍ على ظهرِهِ أو في عربةٍ خلفَه. لم يكُنْ ذلك أمراً مروِّعاً. وأكثر ما كنتُ أبغضُه كانتِ الحدوات الحديديَّة التي كان عليّ أن أنتعلَها. فقد كانت قاسيةً وثقيلة. لكنني تعوَّدتُ عليها بسُرعة.

وما لبثتُ أن اضطررتُ إلى أن أتركَ أمّي وأن أنتقلَ إلى ملكيَّةِ سكواير غوردون.

فقالت لي : "تذكَّرْ أنّه بقدرِ ما يكون تصرُّفُكَ حسَناً بقدرِ ما يحسِنون معاملتك."

ونظرَتْ إليَّ لبعضِ الوقت. ثمّ تابعَتْ:

"الناسُ أنواعٌ عديدة، منهم الطيِّبو القلب والأشرار والحَمْقى والجَهَلة واللامبالون وأسوؤهم قُساةُ القلبِ الذين يَنْبغي عَدم السماحِ لهُم باقتناءِ حِصانٍ. آمل أن يكونَ لك دائماً سيّد صالح."

ثم أصبح وجهُها حزيناً.

" لا يعلمُ الحصانُ أبداً من سوف يَشْتريه. لكنّني على الرغمِ من ذلك أقولُ لك أن تقومَ بأفضلِ ما بوسعِكَ أينما كنتَ وتحافظَ على سُمعتِكَ."

قالَتْ هذه الكلماتِ الأخيرة، وغادرَتْني. وذهبتُ لأبدأَ حياةً جديدةً في مزرعةِ بيرتويك.

الفصل الثاني

يومٌ عاصِفٌ

كنتُ مُتوتِّراً حين أتى سَيِّدي لرُكوبي للمرّةِ الأولى. حاولْتُ أن أقومَ بما يطلبُهُ منّي تماماً. وكان سكواير غوردون خيّالاً بارعاً ومهتمّاً بسَعادَتي. فأخذَني لمقابلةِ زوجتِهِ.

قالَ لها سكواير : "إنّهُ مخلوقٌ لطيفٌ. أيَّ اسمٍ سنُطلِقُ عليه؟"

فسألَتْه : "أيعجبُكَ أبنوس؟ فهو أسودُ كخشبِ الأبنوس."

فأجابَها زوجُها : "لا، ليس أبنوس."

فاقترحَتْ : " بلاك بيرد؟ كاسْمِ حصانِ عمِّكَ القديم؟"

فأجابَ : "لا. إنّه أكثرُ وسامةٍ من بلاك بيرد بكثير."

فوافقَتْهُ زوجتُهُ الرأيَ قائلةً : "أجل، إنه فعلاً وسيمٌ. له وجهٌ هادئٌ وعينان ذكيّتان. لمَ لا ندعوهُ بلاك بيوتي؟"

فابتهجَ سكواير وقال : "أجل، بلاك بيوتي!"

فقالَ جايمس، عاملُ الإسطبل، لصديقِهِ : "لكنتُ دعَوْتُهُ روب روي. لم أرَ في حياتي قطّ حصانين يتَشابهانِ إلى هذا الحدّ."

فأجابَ صديقُهُ : "ذلك لأنهما من الأمِّ نفسِها."

شعرتُ بالحزنِ، لأن روب روي المسكين الذي قُتِلَ في الصَّيْد كان أخي!

سُرعانَ ما صارَ الحصانانِ الآخران في الإسطبل، ميريليغز وجينجر، صديقَيّ، وكنا نقضي أوقاتاً سعيدةً وعديدة نتحدّثُ تحت

أشجارِ التفاحِ في البستانِ. لقد أحببتُ ميريليغز، فهو مهرٌ صغيرٌ بدينٌ ينتمي لأولاد سكواير؛ لكنني في بادِئ الأمر خفتُ قليلاً من جينجر، وهي فرسٌ طويلةٌ كستنائيّةُ اللون، لأنّ مزاجَها سيّىءٌ جداً. ثمّ علِمتُ أنّها قد تعرّضَتْ في الماضي لسوءِ المعاملةِ. وسُرعانَ ما أصبحْنا صديقَيْن. كان كلانا يَصْلُحُ للرُكوبِ وجرِّ العرباتِ لأنّنا نتحدّرُ من دمٍ أصيل. وكان لكلينا الارتفاع المناسب – أي خمسة عشر ذراع ونصف.

كنتُ سعيداً جداً في بيتي الجديد. كان لديّ إسطبلٌ صغيرٌ مُهوّى وطعامٌ لذيذٌ وفير. ماذا يَسعُني أن أطلبَ أكثر من ذلك؟ كنتُ أريدُ حُرِّيّتي! إذ إنه خلال الأعوامِ الثلاثةِ والنصفِ الأولى من حياتي، كنتُ أركضُ وأقفِزُ في الهواءِ الطَلقِ في المروجِ الخضراءَ. لكن ينبغي عليّ الآن أن أبقى في الإسْطَبل أسبوعاً بعد أسبوعٍ وشهراً بعد شهر (وعلى الأرجح سنة بعد سنة!). وكنتُ لا أخرُجُ إلا حين يحتاجُ إليّ أحدُهم. كنتُ يافعاً وأتوقُ إلى العَدْوِ في الحقولِ فيما ينفخُ الهواءُ في ذيلي.

كان السائسُ جون يعرفُ ذلك. فكان يمتطيني أحياناً عبرَ البلدةِ وفي الهضابِ لبعضِ الوقتِ. كان يعرفُ كيف يهدِّئ من رَوْعي. لم تكُن جميعُ الأحصنةِ محظوظةً مثلي، لأنَّ أسيادَها يضربونَها لإسكاتِها.

لكن في يومٍ خريفيٍّ عاصف، تمرّنتُ أكثر مما كنتُ أرْغَبُ.

كان على سيّدي أن يقومَ برحلةِ عملٍ بعيدة، فوضَعَ جون عليَّ عُدَّتي وربَطني بعربةٍ صغيرةٍ وخفيفةٍ ثمّ جلسَ على مَتْنِها مع

السيّد. كانت الريحُ تهُبُّ بقوةٍ بعد المطرِ الذي هَطَلَ بغزارةٍ في الليلةِ الفائِتة. وما لبثنا أن وصَلْنا إلى جسرٍ خشبيٍ صغير. تفاجأتُ عندما نظرتُ تحتي. فقد كان مستوى مياهِ النهرِ مرتفِعاً جداً، وكان مستمرّاً بالارتفاع.

ذهب سيّدي إلى المدينةِ بهدفِ العمل، ثمّ انطلقْنا باتجاهِ المنزلِ في وقتٍ متأخِرٍ أكثرَ من العادةِ. كانتِ الريحُ تصفر بين الأشجارِ فتتمايلُ أغصانُها.

قالَ جون : "لم يسبقْ لي أن خرجتُ في طقسٍ رديءٍ كهذا."

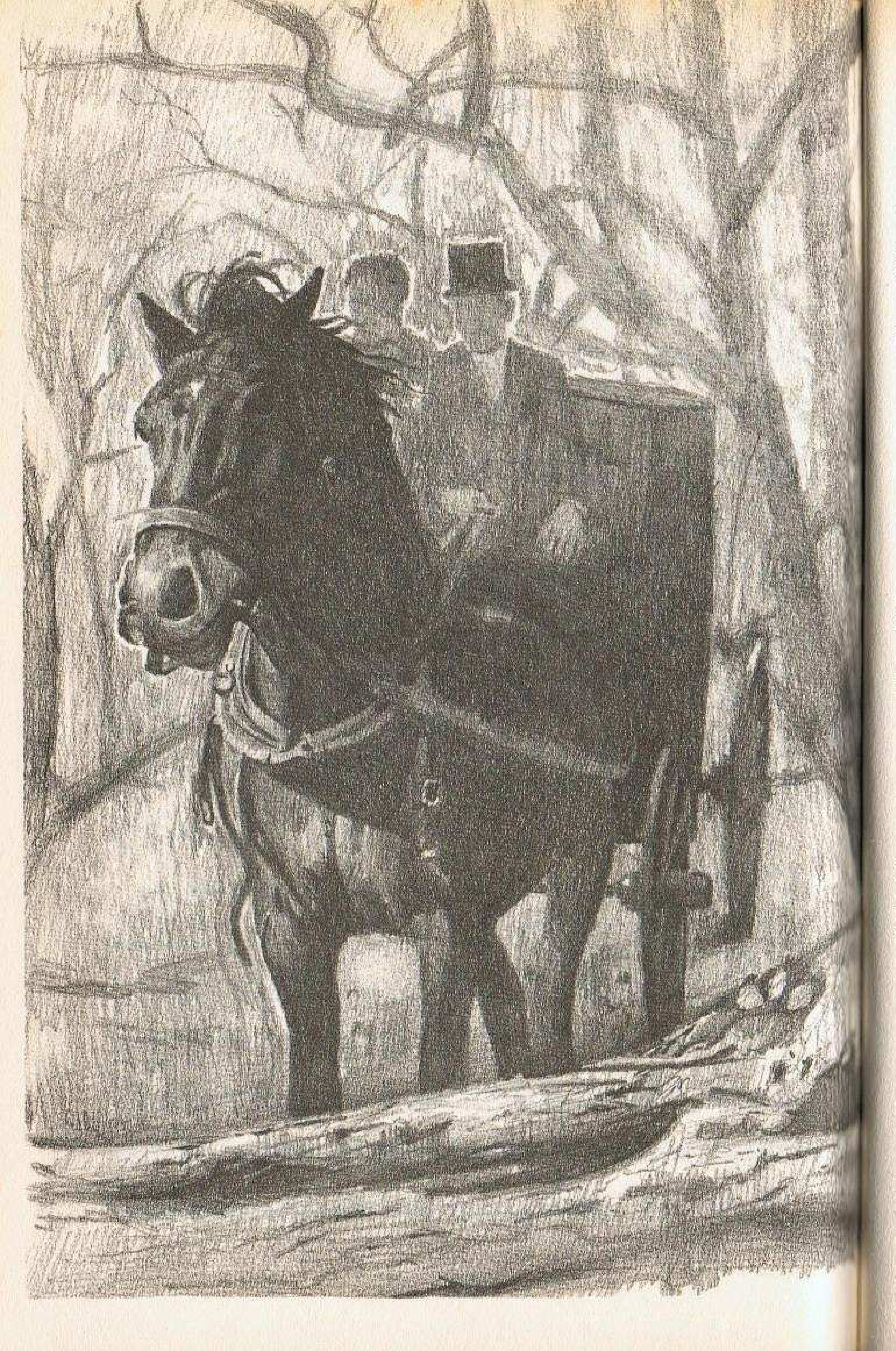
فأجابَ السيّدُ : "أتمنّى لو نخرُجَ من هذه الغابةِ سالِمين."

فجأةً، سمِعْنا صوتَ أنينٍ ثمّ صوتَ تشقّقٍ وتكسّر. هَوت إحدى شجراتِ البلّوط أمامنا في عرضِ الطريقِ تماماً. ارتعبتُ بشدّةٍ فتوقفتُ وأنا أرتجفُ. لكنني أفتخِرُ بالقولِ إنني لم أستدِرْ ولم أبدأْ بالعَدْو.

قالَ جون : "حسناً يا سيدي، لا نستطيعُ أن نتقدّمَ بالعربةِ فوقَ هذه الشجرةِ ولا أن نلتفَّ حولها. علينا أن نعودَ إلى تقاطُعِ الطُّرُق. أمامُنا ستةُ أميالٍ على الأقلّ حتّى نصِلَ إلى الجسرِ الخشبي. والحصانُ ما زال نشيطاً."

كان الظلامُ قد حلّ تقريباً حين عُدْنا إلى الجسرِ الخشبي. وكان بإمكاننا رؤيةَ المياهِ تغمرُ منتصفَه. كنتُ أعْدُو بسرعةٍ، ولكن حين لمَسَتْ أقدامي أوّلَ قسمٍ من الجسرِ، أحسَسْتُ أنّ هناك خَطْباً ما.

فقال سيّدي : "هيّا يا بيوتي." ثم ضربني بالسوطِ بخفّةٍ في البداية، ثمّ بقوّة.



رفضتُ أن أتحرّك.

فسأل جون : "هيّا يا بيوتي، ما الخَطْب؟"

كُنتُ أريدُ أن أقولَ لهُ إنّ الجسرَ خطيرٌ لكنني بالطبع لم أستطِعْ.

في تلك اللحظةِ، رآنا الرجلُ الجالسُ في حُجَيْرةٍ قربَ الجسرِ فخَرَجَ منها وصاحَ في الرياح : "توقّفوا! توقّفوا! الجسرُ مكسورٌ في مُنتصفِهِ. لقد جرفتِ المياهُ قِسماً منه."

فقال سيّدي : "الحمد لله!"

وقالَ جون فيما كان يحثُّني على الاستدارةِ : "آه يا بيوتي!"

مشيْنا في صمتٍ لبعضِ الوقتِ ثمّ سمِعتُ صوتَ سيّدي يقول:

"لَكانت المياهُ جرفتنا بعيداً، ولَغرِقْنا جميعاً. لقد أعطى اللهُ الحيواناتِ معرفةً مُميّزة، فهي تتصرَّفُ بدَل أن تفكّر. وهكذا تُنقذُ حياةَ الناسِ في مُعْظمِ الأحيان."

يا للعشاءِ الرائعِ الذي قدّمَهُ لي جون لدى وصولِنا إلى البيتِ – كُتلةً كبيرةً من النخالةِ، وبعضَ حبوبِ اللوبيا المطحونةِ مع الشوفان، ورزمةً غليظةً من القش. انكبَبْتُ عليها برشاقةٍ. ولم يسْبِقْ لي قطّ أن كنتُ مُرْهَقاً إلى هذا الحد.

لم أكن أعلَمُ حينَها أنني سأتعرَّضُ بعد فترةٍ إلى خطَرٍ أكبر.

الفصل الثالث

الحريق !

قرَّرَ سيِّدي وسيِّدَتي أنْ يزورا بعضَ الأصدقاءِ الذين كانوا يعيشون على بُعدِ ستةٍ وأربعينَ ميلاً من بيتِنا، وكان على جيمس أن يقودَهما إلى هناك. في الطريق، أمضَيْنا الليلةَ في فُندقٍ يقعُ في سوقِ إحدى البلداتِ الصغيرة. وقادَنا أحدُ السائسين العامِلين هناك أنا وجينجر إلى الإسطبل.

فيما بعد، جاءَ سائسٌ آخر مع حصانِ مسافرٍ آخر. وكان هذا السائسُ يافِعاً ويُدخّنُ غليوناً.

فقالَ لهُ السائسُ المُسِنّ : "هلاّ صعِدْتَ إلى مخزنِ التِّبنِ وأنزلتَ بعضَ التِّبنِ؟ ولكنْ أطفِئْ غليونكَ أوّلاً."

فقالَ الصبيُّ : "حسناً"، وصَعِدَ السلّمَ ودخلَ إلى المخزنِ عبر بابٍ في السّقفِ.

بعد ذلك بقليل، أغلقَ السائسُ بابَ الإسطبلِ وغادرَ. وخلالَ الليل، استيقظتُ فجأةً وأنا مُنزعِج. ما الخطب؟ كان الهواءُ من حولي كثيفاً وضبابيّاً وكنتُ أسمعُ جينجر تسعلُ. أمّا الجيادُ الأخرى فكانت مُهتاجَةً. ثمّ أدركتُ الأمرَ. إنه دخان!

أصغيتُ بانتباهٍ شديد. كنتُ أسْمعُ صَوتَ حَركةٍ فوقي، في مخزنِ التِّبنِ، ثمّ سَمِعْتُ صوتَ تكسُّرٍ فبدأتُ أرتجِفُ. كانت كلُّ الجياد قد استيقظَتِ الآن وبدأَتْ تشُبُّ على أقدامِها الخلفيّة.

في تِلك اللحظة، فُتِحَ بابُ الإسطبلِ على وُسعِه ودخلَ أحدُ السائسين حاملاً قنديلاً وبدأ يفكُّ قِيادَ الأحصِنةِ القريبة من الباب.

وصاح : "هيّا! هيّا!"

كانت الجِيادُ تشعُرُ بما في صَوْته من هَلَعٍ، فلم تذهبْ معه. ثمّ حاولَ أن يشُدَّني، لكنني رفضتُ أن أتحرّكَ أيضاً.

فكّرتُ في نفسي : "أعلَمُ أنّ هذا سخيف، لكنني لا أثِقُ به."

بدأ الهواءُ النقيُّ يدخلُ من البابِ المفتوح. فاستطعتُ أن أتنفّسَ بسهولةٍ أكبر، لكن ضوءاً أحمرَ كان لا يزالُ يشتعِلُ من حولنا.

صرخَ أحدُهم في الخارجِ : "حريق! حريق!"

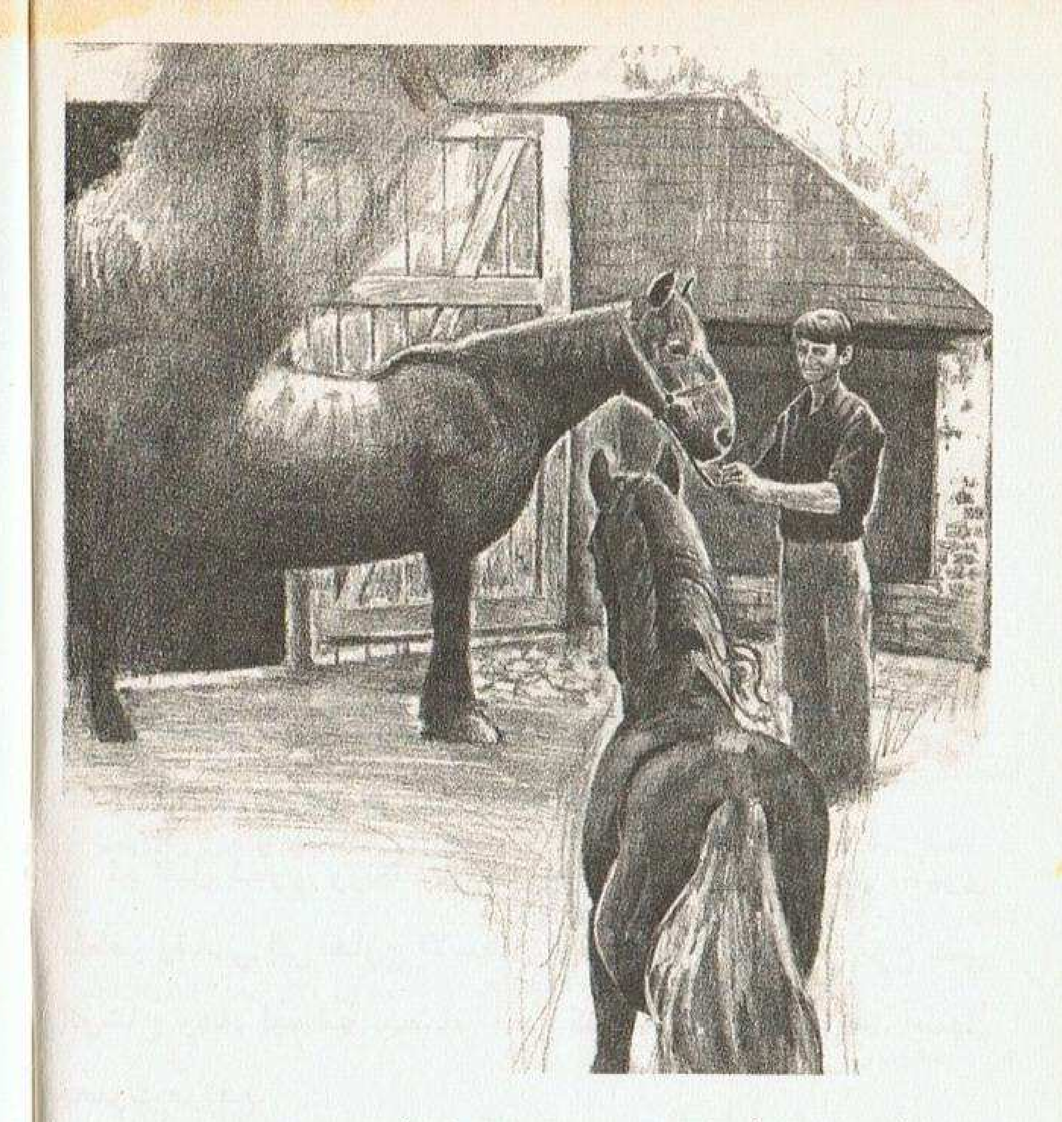
ثمّ سمِعتُ صوتَ جيمس الهادِئ والمَرِحِ كعادته يقول: "هيا يا جميلاتي، حانَ وقتُ الرحيل. استيقظي!"

ثمّ أقْبَلَ نَحْوي وربَطَ وِشاحَه حولَ عينيّ. ثمّ ربّتَ على ظهري بلطفٍ وقادَني إلى خارجِ الإسطبلِ. وفي الفِناءِ الخارجيّ نزعَ عني الوشاحَ وعاد ليُحضِرَ حِصاناً آخر. كنتُ متوتّراً جداً فرحتُ أصهَلُ بصوتٍ مُرتفِع.

وقفْتُ أنظرُ إلى بابِ الإسطبل. كان الدخانُ الكثيفُ يخرجُ منه وكان اللّهَبُ الأحمرُ يُنير الظلامَ. سمعتُ صوتَ تحطّمٍ في الداخل. ما الذي حصلَ لجينجر؟ في اللحظةِ التاليةِ، صَهلتُ بسعادةٍ، فقد خرج جيمس عبر الدخانِ وهو يقودُ جينجر، وكان كِلاهما يسْعُلُ بشدّة.

قال سيّدي لجيمس : "يا رَجلي الشجاع، هل أُصِبتَ بأذى؟"

هزّ جيمس رأسه، فيما اتّجهَتْ جينجر نحوي وهي تترَنّح.



قالَتْ وهي تلْهثُ : "الحمد لله أنك أطلقْتَ ذلك الصوتَ الرهيب. تجرّأتُ على الحِراكِ فقط لأنني سَمِعتُكَ في الخارج."

كانت الضجَّةُ الصادرةُ من الإسطبلِ فظيعةً. فقد كان الحصانان اللذان بَقِيا في الداخلِ يصيحانِ وهما يحترقان حتى الهلاك. كانت ليلةً رهيبة – وكلّ ذلك بسببِ ذاك الفتى الذي صَعِدَ إلى مخزنِ التّبنِ وهو يدخّنُ غليونه.

الفصل الرابع

رِحلةٌ لَيليّة

بعدَ الحريقِ بزمنٍ قصير، كان جيمس يتحضَّرُ لمغادرتنا. وكان سيعْمَلُ سائِساً لدى صهرِ سيّدي.

وقد قالَ في إحدى الليالي لجون : "أتساءلُ من الذي سيحِلُّ مكاني."

فأجابَ جون : "إنه جو غرين الصغير."

فصاحَ جيمس : "جو غرين الصغير! لكنّه طفل!"

قالَ جون : "إنّه يبلغُ الرابعةَ عشرة والنصف من العمرِ، كما أنه يتعلَّمُ بسرعةٍ ويريدُ أن يتعلّمَ. سوف أجرّبُه لمدّةِ ستّة أسابيع."

فقالَ جيمس : "ستة أسابيع! ستةُ أشهرٍ ستمرُّ قبلَ أن يكونَ ذا فائدةٍ."

في الأسابيعِ التي تلَتْ، غالباً ما خطرَتْ كَلماتُه هذه في ذِهْني.

بعدَ مغادرةِ جيمس بِبضْعةِ أيامٍ، وفي ليلةٍ كنتُ قد غفوتُ فيها بِسرعةٍ، بدأ جرسُ الإسطبلِ يدقُّ بصَخَبٍ. ورَكَضَ جون إلى الداخل. وقالَ لي بينما كان يضعُ لي السرجَ واللِجام : "استيقِظْ يا بيوتي، عليكَ أن تركُضَ بأقصى سرعتِك."

وقفتُ وأنا نصفُ نائمٍ. هل كنتُ أحلمُ؟ لا! قادَني جون إلى بابِ البيتِ الأمامي حيثُ وقَفَ سيّدي حاملاً قنديلاً في يدِه.

وقال بجدّيةٍ : "الآن يا جون، قدْ وكأنَّ حياتكَ متوقِّفةٌ على ذلك..."

وتوقّفَ. أصغيتُ باهتمامٍ شديد، فقد كان هناك خَطْبٌ ما.

ثمّ أكملَ : "... وكأنَّ حياةَ سيّدتك متوقفةٌ على ذلك. أعطِ هذه الرسالةَ إلى الدكتور وايت."

فقالَ جون : "أجل يا سيّدي."

عَدَوْنا بسرعةٍ عبرَ المزرعةِ، وعبرَ القريةِ، ثمّ نزَلنا التلَّةَ إلى النهرِ.

صاحَ جون : "الآن يا بيوتي، ابذُلْ ما في وُسْعِك."

كذلك فعلْتُ؛ عدوْتُ بأقْصى سُرعتي، وحين وصلْنا إلى الجسرِ، شدَّ جون لِجامي. وقالَ:

"أحسنْتَ يا بيوتي! يا لك من حصانٍ طيّب."

وسرعان ما انطلقْنا مجدَّداً بالسرعةِ ذاتها. كان الهواءُ صقيعاً والقمرُ يلمعُ. عدَوْتُ وعدوتُ عبرَ الغابةِ وصَعِدْتُ التلّةَ ثمّ نزلتُها، أي عدَوْتُ ما يُقاربُ ثمانيةَ أميالٍ. وَطِئَتْ أقدامي شوارعَ المدينةِ حين كانتْ ساعةُ الكنيسةِ تدقُّ معلنةً الساعةَ الثالثة.

طرقَ جون بابَ الدكتور وايت بصَخَبٍ كالرعد. وأخيراً، فُتحَتْ نافذةُ إحدى غُرفِ النوم.

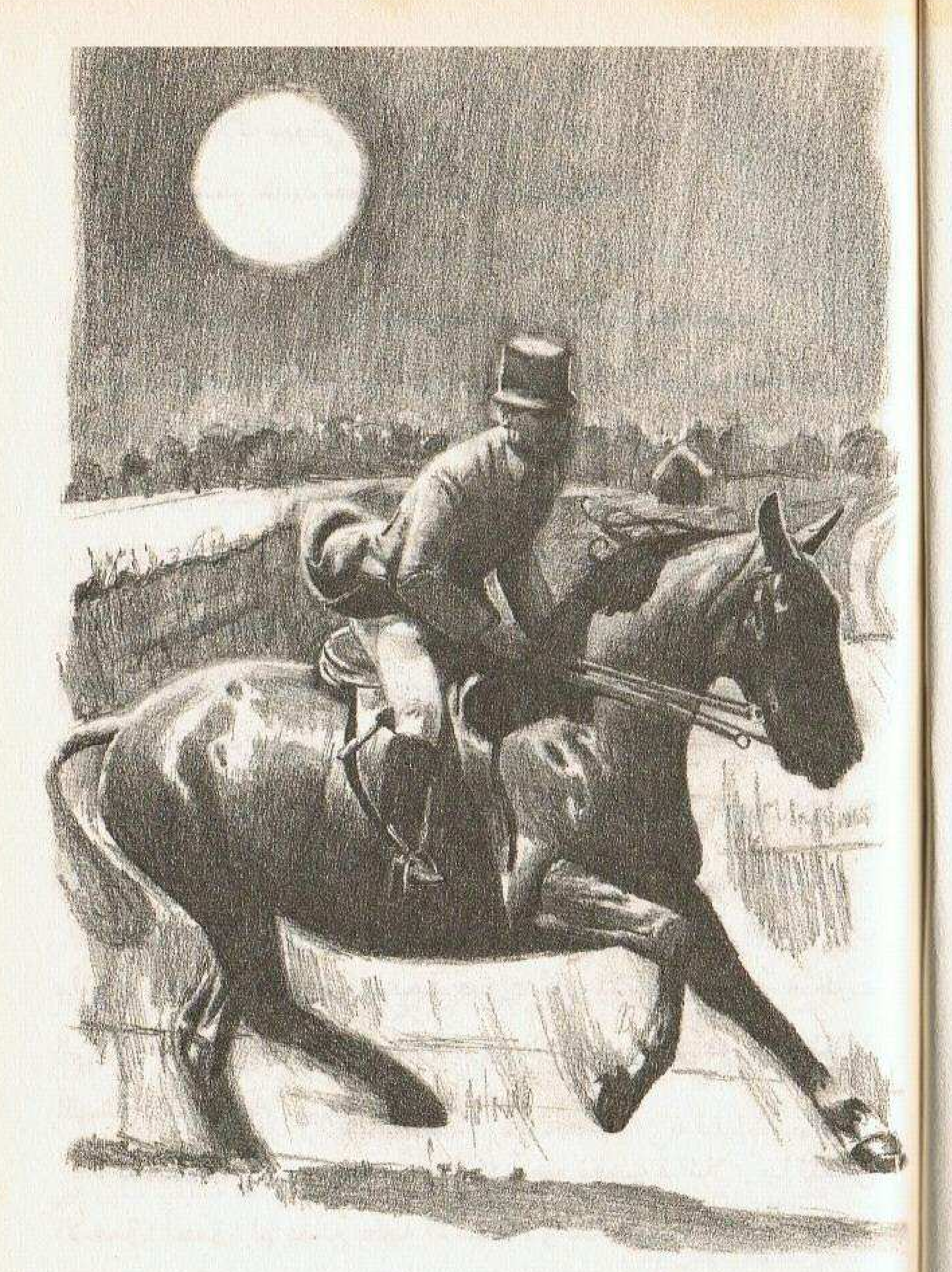
صاحَ الدكتور وايت : "ماذا تريد؟"

فقالَ جون : "لقد اشتدّ المرضُ بالسيدةِ غوردون يا سيدي. إنّ سيدي يريدُك أن تَحضُرَ إليه فوراً. إنه يظنُّ أنها سوف تموتُ إن لم تتمكَّن من الوصولِ إلى هناك. هاكَ رسالةً منه."

قالَ الدكتور وايت : "انتظِرْ، سآتي."

وأسرَعَ بالنزولِ إلينا وقال:

"كان حصاني يعدُو طيلةَ النهارِ، هل أستطيعُ أن آخذ حصانَك؟"



كنتُ أشعرُ بحرٍّ شديد، وقد نالَ منّي التعبُ الشديد. وكنتُ بحاجةٍ إلى الراحةِ. وذُعِرتُ حين رأيتُ الطبيبَ يحملُ سَوطاً.

فقالَ جون : "لن تحتاجَ إلى هذا يا سيدي، سوفَ يعدو بلاك بيوتي حتّى يقَع من التعبِ."

شعرتُ بفخرٍ شَديد حين سَمعتُ هذه الكلِمات.

وانطلقْنا. لن أقولَ الكثّير عن رحلتِنا، سوى أنّ الدكتور كان رجلاً ثقيلاً وفارساً سَيِّئاً. لكنّني بذلْتُ أقصى جهدي كما علمَتْني أمي. وحين وصَلْنا إلى الإسطبل تلك الليلة، كانت أقدامي ترتجِفُ تحتي، وكنتُ ألهثُ والعَرقُ يتصبَّبُ مني. وكان البخارُ قد بدأ يتصاعدُ من ظهري.

قام جو غرين الصغير بما في وسعِهِ أيضاً. ففَركَ لي أقدامي وصدري وأعطاني دلواً من الماءِ لأشربَ ورُزمةً من التِّبن. لكنّه لم يغطِّني بقماشَتي الدافئةِ لأنني كنتُ أشعرُ بحرٍّ شديد. وسُرعانَ ما بدأتُ أرتجِفُ من شدّة البردِ.

فتَمْتَمْتُ : "يا ليتَ جون كان هنا، لكن عليه أن يسيرَ ثمانية أميالٍ على قدميْه! لما كان نَسِيَ قُماشَتي الدافئة."

لم أتمكّنْ من النومِ. فقد كان جَسَدي يُؤلمُني كثيراً، فرحتُ أئنّ وأنوحُ. وبعد وقتٍ طويل، سمعتُ صوتَ بابِ الإسطبل يفتحُ، فنظرتُ إلى الأعلى. إنّه جون! أنّيتُ مرةً أخرى، فجاءَ جون إليّ فوراً مع ثلاثةِ أقمشةٍ دافئة وماءٍ ساخنٍ لأشربَه.

وفيما كنتُ أغفو، سمعتُهُ يتكلّمُ مع نفسِه قائلاً : "يا لِلْفتى الأحمَق! أحمَق! لم يضَعْ عليهِ الأقمشة، والماءُ أيضاً بارد. لا فائدة من الفتيان."

ومع حلولِ الصباحِ، كان قد انتابَني المرضُ الشديد.

الفصل الخامس

بيتٌ جَديد

كانت رِئتايَ تؤلِمان بِشدّةٍ فلم أستطِعْ أن أتنفسَ بسهولةٍ. وكان جون يعتني بي ليلاً ونهاراً. وفي أحدِ الأيامِ، جاء سيّدي ليراني.

قالَ : "يا بيوتي المسكين، يا حصاني الطيِّب، لقد أنقذْتَ حياةَ سيّدتِك."

لا أعلمُ كَمْ من الوقتِ استمرَّ مَرضي. كنتُ أعاني من حمًّى شديدة، وكانت أكثرُ الأصواتِ خُفوتاً تبدو لي صاخِبةً جداً. تمَّ نُقلَ ميريليغز وجينجر إلى الجزءِ الآخرِ من الإسطبلِ. وفي إحدى الليالي، أعطاني جون بعضَ الدواءِ بمساعدةِ توم غرين. وكنت أُصغي إلى حديثِهما.

قالَ توم : "أرجو أن تقولَ كلمةً لطيفةً لابني، لقد انفطرَ قلبُه. لا يستطيعُ أن يأكلَ أو أنْ يبتسِمَ. يقولُ إنه يعلمُ أنها غلطته وإنه لم يقُمْ بكلِّ ما كان بوُسْعِهِ. قُلْ له كلمةً واحدةً لطيفةً فقط، جو ليس فتىً سيئاً."

فقالَ جون أخيراً : "أعلمُ هذا يا توم، لكنَّ هذا الحصان مَصدرُ فَخْري وفرَحي، وهو المُفضّلُ لدى سيّدي وسيّدتي. سأحاولُ أن أقولَ له كلمةً لطيفةً في الغد – ذلك إذا تحسّنَت حالُ بيوتي."

فقالَ توم : "شكراً لك يا جون. إنني سعيدٌ لأنك تعتقدُ بأنَّ في الأمرِ جَهْلاً ليس إلاّ."

كان صوتُ جون مرتفعاً وغاضِباً لدرجةِ أنه جعلَني أقفزُ من الخوفِ.

صرخَ : "الجهل فقط! الجهل فقط! كيف يمكنُكَ أن تتحدّثَ عن "الجهل فقط" ؟ أتعلَم أنهُ أسوأ شيءٍ في العالمِ بعد المَكْر؟"

وتلاشَى صوتُه فيما رُحْتُ في سُباتٍ عميق لأوَّلِ مرَّة. وحين استيقظْتُ، كنتُ أشعُر بأني تحسَّنْتُ كثيراً. وكنتُ أفكِّرُ غالباً بكلماتِ جون عندما كان عليّ أن أدخلَ ذلك العالمَ القاسي خارجَ مزرعةِ بيرتويك.

كان جون هو مَن أعلنَ الأنباءَ السيِّئةَ في الإسطبل. وقالَ لِجو : "إنّ السيّدةَ مريضةٌ من جديد. ويقول الطبيبُ إنّ عليها أن تعيشَ مع السيّدِ في منطقةٍ دافِئَةٍ."

بعد ذلك لم نعُدْ نسمعُ صَفيرَ جو، وكان جون يَبْقى صامِتاً وحزيناً طيلةَ الوقتِ.

قالَ السيّدُ لجون : "لقد بِعتُ جينجر وبلاك بيوتي لصديقي في مزرعةِ إيرشال. وسيذهبُ ميريليغز إلى الدير. يستطيعُ جو أن يعتني به هناك. ما الذي أستطيعُ أن أخدمَكَ به يا جون؟"

فأجابَ : "لا شيء، شكراً يا سيدي. لقد عُرِضَ عليّ العديدُ من الوظائفِ، لكنني سوفَ آخذ وقتي لأفكِّرَ في الأمْر."

في الليلةِ التي سبقَتْ رحيلَ العائلةِ، جاءَ السيّدُ لِيودِّعَنا. فربَّتَ علينا للمرّةِ الأخيرةِ. كان حزيناً جداً، وقد عرفتُ ذلك من نبرةِ صوتِه. وأعتقدُ أننا نحن الجياد نستطيعُ أن نعرفَ أموراً من نبرةِ الصوتِ أكثر مما يستطيعُ العديدُ من الناسِ ذلك. كنتُ حزيناً أنا أيضاً فقد كنتُ أشعُرُ بسعادةٍ أكبر وفخرٍ أعظمَ كلّما طالت إقامتي في مزرعةِ بيرتويك.

في اليومِ التالي، قادَنا جون إلى مزرعةِ إيرشال. ثمّ رحلَ بعد بعضِ الوقتِ ليستقلَّ قطارَه. رفعْتُ رأسي إليه، فكان هذا جُلَّ ما أستطيعُ القيامَ به لأودّعَه. ولم أرَه أبداً منذ ذلك الحين.

بدا سيّدي الجديدُ مسروراً جداً بنا. وبعدَ الظهرِ، ربطَنا سائسُه المدعو يورك إلى عربةِ السيّدة. لم يُعْجِبْني لِجامي الجديد بتاتاً، فقد كان قصيراً وضيّقاً بحيثُ يبقي الرأسَ عالياً في الهواءِ. فلم أكُنْ أتمكّنُ من إخفاضِ رأسي. لم يرُقْ للسيّدةِ شكلُنا فصاحَتْ بالسائسِ قائلةً :

"يورك! عليكَ أن ترفعَ رأسَيْ هذين الحصانين. ليسا ملائمَيْن لكي يراهُما الناسُ."

فقالَ يورك : "عُذْراً منكِ يا سيدتي، لكنّ هذين الحِصانين لم يُقيَّدا منذُ ثلاثِ سنواتٍ. لقد قالَ لي سيّدي أن أرفعَ رَأْسَيْهما شيئاً فشيئاً."

فأجابَتْهُ : " قُمْ بذلك الآنَ!"

وفيما كُنّا نصعَدُ التلّةَ، أدركتُ لِماذا تكرَهُ الجيادُ هذه اللُّجُم إلى هذا الحدّ. كنتُ أريدُ أن أمدَّ رأسي إلى الأمامِ فيما كنتُ أصعَدُ التلّةَ لكن كان عليَّ الآن أن أجُرَّ العربةَ ورأسي مرفوعٌ للأعلى. لقد أرهقَني ذلك تماماً كما أنه سبّبَ لي ألماً في ظَهري وأقدامي. وكان اللِّجامُ يُشدُّ كلَّ يومٍ أكثرَ من اليومِ السابقِ بقليل. فبدأتُ أخشى عُدّتي.

ذات يومٍ، كانت السيّدةُ غاضِبةً أكثرَ من العادةِ. فقالَتْ لِيورك: "شُدّ لجامَيْهما مجدَّداً."

فشدّ لجامي أوّلاً لدرجةِ أنني كدْتُ لا أتحمّله. ثمّ ذهبَ إلى جينجر.

فشبَّتْ على قائمتَيْها الخلفيتيْن وأوقعَتْ قبعّتَهُ وبدأَتْ تركلُ. وبعد جهدٍ كبير، أعادَها يورك إلى الإسطبلِ. استشاطَ سيّدي غضَباً حين علِمَ بالأمر. وقالَ ليورك:

"لم يكُنْ عليكَ أن ترضخَ لطلبِ السيّدة."

فأومأتُ موافِقاً. وتمتمتُ قائلاً لِجينجر : "يجبُ على يورك أن يُدافِعَ عن أحصنتِهِ."

لم تُربطْ جينجر بتلكَ العربةِ بعد ذلك أبداً. ذهبَتْ لاحِقاً لتعمل لدى أحدِ أبناءِ السيّد. فأصبحَ لديّ الآن رفيقٌ جديدٌ في جرِّ العربةِ يُدعى ماكس.

فقلتُ له : "إنكَ لا تتذمّرُ أبداً من اللِّجامِ القصير، فكيف تتحمّلُهُ؟"

قال : " إنني أتحمّلُهُ لأنّني مضطرٌ إلى ذلك. لكنّهُ يُقصِّرُ حياتي وحياتك كذلك."

فسألتُه : "أيعلمُ سيّدُنا كم هو سيّىءٌ لصحّتِنا؟"

فقال ماكس : "لا أدري. لكنّ طبيبَ الجياد يعلَمُ."

لا يمكِنُني أن أصِفَ كمْ عانيتُ في الأشهرِ الأربعةِ التالية. فقد سبّبَ اللِّجامُ الأذى للساني وفكّي، وغالباً ما ملأ الزَّبَدُ فمي. كان بعضُ الناسِ يظُنّون أنّ هذا أمرٌ طبيعيٌّ للأحصنةِ. غير أنّ من السيّىء أن يُزبدَ الحِصانُ بقدر ما هو من السيّىء أن يُزبدَ الإنسان.

ما لبثتُ أن انتابني الإرهاقُ والكآبة. والأسوأُ من ذلك هو أنّ أحداً لم يكُن يأبَهُ لذلك. ولكن سُرعانَ ما بدأْتُ أُعاني من ألمٍ أكبر غيّرَ حياتي نهائيًّا.

الفصل السادس

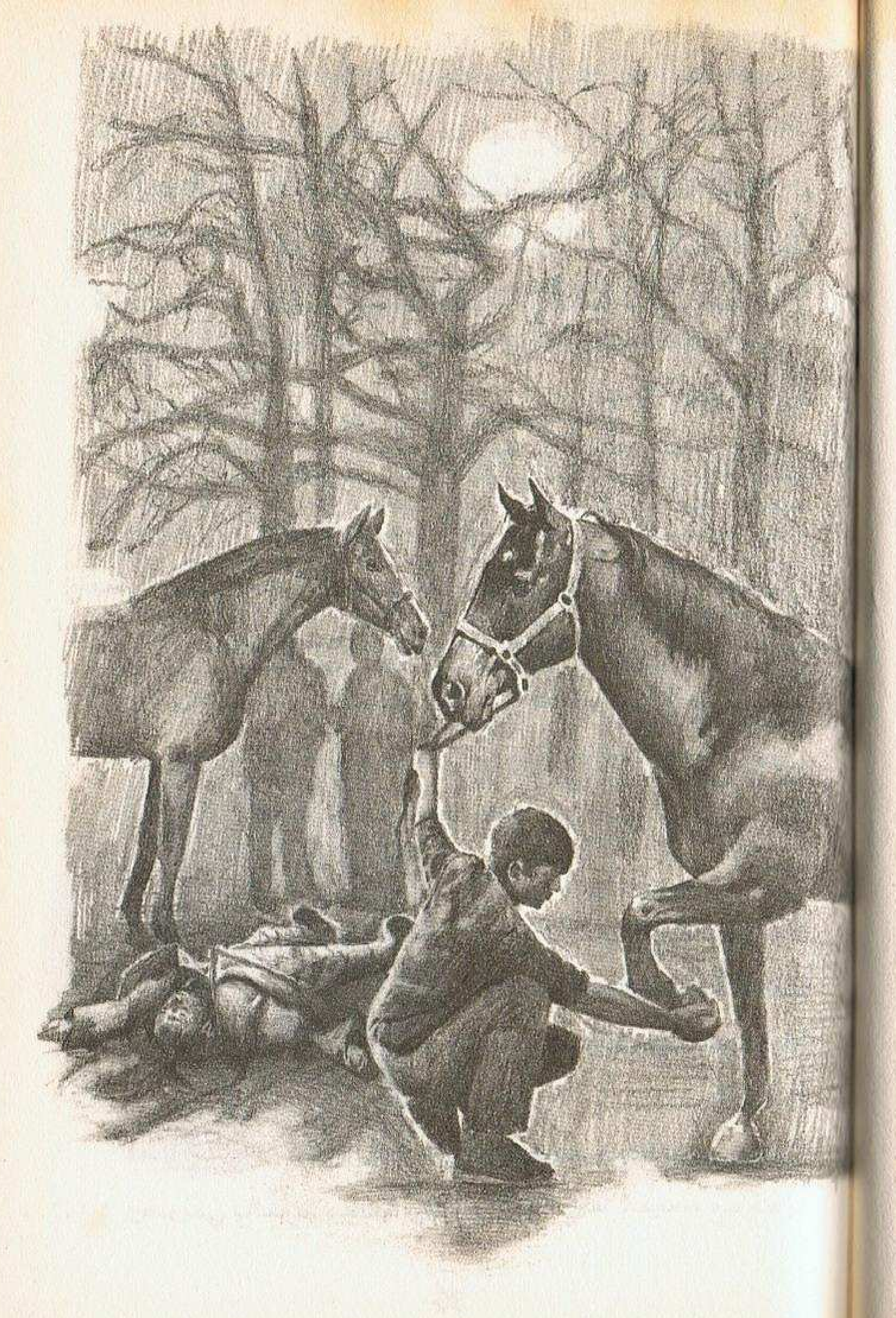
معطوبٌ بالكامل

أصبحتْ حياتي أسهلَ لبضعةِ أسابيع. فقد اصطَحبَ السيّدُ إيرل زوجتَه إلى لندن للبقاءِ فيها بعضَ الوقت. وأحياناً، كانَت ابنتُهُ الآنسة آن تمتَطيني، وكنتُ أتمتّعُ بنزُهاتي معها في الهواءِ البارِدِ والنقيّ.

وكان رجلٌ يُدعى روبن سميث قد كُلِّفَ بمسؤوليّةِ الإسطبلِ. كان لطيفاً وذكياً ويعرِفُ الكثيرَ عن الأحصنةِ. وكان محبوباً من الجميعِ وخصوصاً الأحصنة. لكن كان لديهِ سيئةٌ واحدة ألا وهي حبه للخمرِ، وقد سبّبَ لي ذلك الكثيرَ من العذابِ.

ذاتَ يومٍ من أولِ أيامِ نيسان/أبريل، وقبلَ شهرٍ من عودةِ العائلةِ من لندن، امتطاني سميث وذهبْنا إلى المدينة. ثم تركَني لدى صانعِ حدواتِ الأحصنةِ وذهبَ للقاءِ أصدِقائِه. فأخذتُ أنتظرهُ. مرّتِ الساعةُ السادِسة ثمّ السابعة فالثامنة. أين هو؟ وفي الساعةِ التاسعة أتى ليأخذَني، وهو يصيحُ ويجْأرُ.

حين خَرجْنا من المدينةِ، بدأ سميث يضربُني بسَوْطِه مع أنني كنتُ أعدُو بأقصَى سُرْعَتي. كان الظلامُ حالِكاً. كانتِ الطريقُ قد أُصلِحَتْ لتوّها فتطايرَتْ بعضُ الحصَى وأصابتْني في وَجْهي. وارتخَتْ إحدى حدواتي. ضربَني سميث بقوّةٍ أكبرَ فبدأَتِ الحجارةُ الحادّةُ تشقُّ حافري العاري.



وقعتُ على رُكَبتيّ موقِعاً سميث على الأرض. فراحَ يئنُّ وكنتُ لأئنُّ أنا أيضاً، لكن الأحِصنةَ معتادةٌ على تحمُّلِ ألمِها بسكونٍ. ثمّ استطعْتُ أن أقفَ لكنّ رُكَبتيّ كانتا تؤلِمان بشدّة.

كان القمرُ قد طلعَ، وكان الجوُّ ساكناً ذا رائحةٍ عطِرَةٍ. طارَتْ بومةٌ بنيّةٌ من فوقِ شُجَيْراتٍ صَغيرة فتذكّرتُ ليالي الصيف في صِغَري، حين كنتُ أتمدّدُ بالقربِ من أمّي في الحقولِ. انتظرتُ وأصغيتُ لأتمكّنَ من سماعِ صوتِ حصانٍ أو عربةٍ.

وعند منتصفِ الليلِ تقريباً، سمِعتُ صوتَ حوافرِ حصانٍ. فعرفتُ أنّها خطوات جينجر! صَهَلتُ بصوتٍ مرتفعٍ فأجابتني بصَهيلِها. اتّجهَ الرِجالُ الذين كانوا معها نحو روبن وقالوا : "إنّه ميت! من كان يظنّ أنّ الحصانَ قد يفعلُ شيئاً كهذا؟"

لم أكُنْ أستطيعُ أن أخْطوَ خطوةً من دونَ أن أقعَ من جديد.

فقالَ روبرت، وهو أحد السائسين : "يا للمسكين! إنّ حافرَه قد تقطّعَ. لا عجب أنه وقعَ."

ثمّ تنهّدَ وقالَ : "لقد عادَ روبن إلى عاداتِه القديمة. أتصدّقون أنه قد امْتَطَى الحصانَ من دون حدوةٍ فوقَ هذه الحجارةِ!"

لن أنسى أبداً تلكَ المَسيرة إلى البيت. قادَني روبرت ببُطءٍ وكنتُ أعْرُجُ وأتألَّمُ بشدّة. مع مرورِ الوقتِ شُفيتُ لكنّني لم أتخلّصْ قطّ من الندبات. كانت تلك بداية النهايةِ بالنسبةِ لي. وعندما عادَ السيّدُ إلى المنزلِ في شهر أيار/مايو، عاينَني بغضبٍ وقال:

"إنني لا آبَهُ للمال، لكنني وعدْتُ صديقي العزيز أن أعتنيَ جيداً بحصانِه."

ونظرَ إليَّ مجدداً وقالَ : "للأسف، لا بدّ أن يُباع هذا الحيوان الأسود. لا يُمكِنُني أن أحتفظَ برُكَبٍ كهذه في إسطبلي."

وبعد أسبوعٍ فقط، أتى روبرت ليصطحبَني إلى محطّةِ القطار. لم يتسنَّ لي الوقتُ لأودِّعَ جينجر. كانتْ تَخْبو بقربِ الشجيراتِ فيما كنتُ أمشي في الطريقِ، وظلَّتْ تصْهلُ لي طالما كان بإمكانِها أن تسمعَ خطواتي.

كانت جينجر على حقّ. إنّ الحياةَ قاسيةٌ فعلاً.

سافرتُ بالقطارِ إلى مَقرِّ مالِكي الجديد، وهو رجلٌ يؤجّرُ الأحصِنةَ والعرباتِ. كنتُ محبوباً لأنّ مزاجي كان جيداً. ولكن ذلك يعني، لسوءِ الحظ، أنَّ جميعَ الناسِ كانوا قادرين على امتطائي، وكان العديدُ منهم يَجْهلون كيفيّةَ معاملةِ الجياد. كان بعضُهم كسولاً وحسب فيَدَع الأحصِنةَ تكتسبُ عاداتٍ سيّئة ممّا يُصعِّبُ الأمورَ على الراكبِ التالي. فتذكّرتُ ما كان يقولُه سكواير غوردون:

"مِن الفظاعةِ أن تدلِّلَ حصاناً مثلما هو فظيعٌ أن تدلِّلَ طفلاً. فكِلاهُما سيتعذّبان لاحِقاً من جرّاء ذلك."

أتذكّرُ سائقاً واحداً في غايةِ القساوةِ واللامبالاة. كنتُ أجرُّ لهُ عربةً صغيرةً فيها سيّدة وطفلَيْن. فضربَني بسوطِهِ حالما انطلقْنا ولم ينتبهْ للحَصَى التي على الأرضِ. وما لبثَتْ أن دخلَتْ حصاةٌ في قدمي الأماميّةِ فبدأتُ أعرجُ وأتعثّرُ بألمٍ.

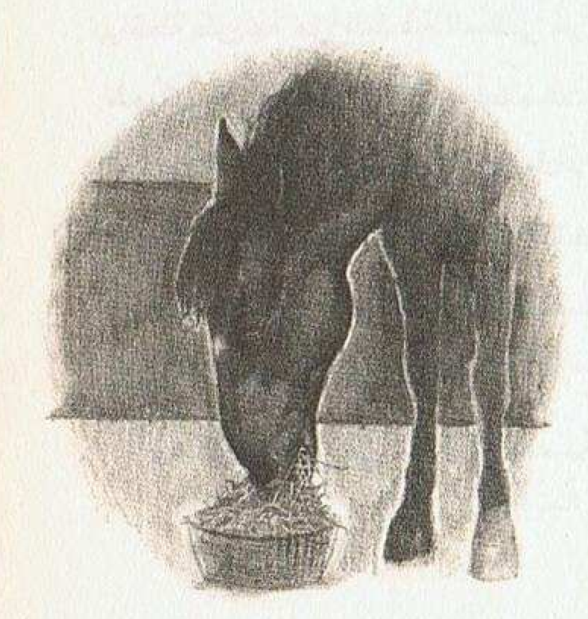
فصاحَ السائقُ أخيراً : "لقد بعثوا إلينا بحصانٍ عاجزٍ! يا للعار!" وضربَني بالسَّوْطِ مُجدَّداً. وصاحَ :

"ما مِن فائدةٍ من الكسلِ معي، خاصةً أن هناك رحلةً عليكَ القيامَ بها."

في تلك اللحظةِ مرَّ مزارعٌ بقربنا. فرفَعَ قبّعتَه بتهذيبٍ وقالَ : "أسْتميحكَ عُذراً يا سيّدي، أظنُّ أنَّ هناكَ خَطْبٌ ما في حِصانِك. دعْني أُلقي نظرةً. هذه الحصَى خطيرةٌ للأحصِنةِ."

أخرَجَ هذا المزارع الطيّب الحصاة من حافري، واستطعْتُ بعدها أن أُكْمِلَ بقيّةَ الرحلةِ.

سُررتُ حين تمَّ بيْعي بعدَ فترةٍ وجيزةٍ للسيّد باري الذي أرادَ حصاناً آمناً ولطيفاً ليمتَطيه. ثمّ أصبحْتُ تحتَ رحمةِ السائس! لم يكُنْ سيّدي يعرِفُ الكثيرَ عن الأحصنةِ، لكنَّهُ كان يُعاملُني معاملَةً حَسَنةً. فطلبَ لي أفضلَ تبنٍ معَ الكثيرِ من الشوفانِ والحبوبِ المسحوقةِ والنخالةِ ونبتةِ الجاودار. لكنني كنتُ أتضوّرُ جوعاً بسببِ سائسي المدعو فيلتشر. فقد ظلَّ يعطيني القليلَ من الطعامِ لمدةِ شهرين. كان يأتي كلَّ صباحٍ في حوالي الساعةِ السادسةِ مع ابنِه الذي كان يملأُ سلّةً صغيرةً من الشوفانِ المخصَّصِ لي! وهكذا، بدأتُ أفقدُ قُواي.



ذاتَ يومٍ، ذهبَ سيّدي في نزهةٍ مع صديقِه الذي قال له:

"يبدو لي أنّ صحّةَ حصانِك ليست جيدةً كما كانت حين اقتنيتَه. هل كان مريضاً؟"

فقالَ سيّدي : "يقولُ ليَ سائسي إنّه غالباً ما تكونُ الأحصنةُ كسولةً في الخريف."

فقالَ صديقُه : "هذا هراء! فلا زِلنا في شهرِ آب/أغسطس!"

بعد هذه المحادثةِ بفترةٍ قصيرة، سُجِن فيلتشر بتهمةِ السرقةِ، وأصبح لديّ سائسٌ جديدٌ اسمه ألفريد سميرك. كيف كان طبعُه؟ لسوءِ الحظِ، لم يطُلْ بي الوقتُ قبل أن أكتشِفَ أنه لم يكُنْ أفضلَ من سَلَفِه.

لقد كان لطيفاً دائماً أمامَ سيّدي، يربِّتُ عليَّ، ويمشّط لي وبري. كنتُ أبدو أنيقاً، لكنّه لم يكن ينظّفُني وينظّفُ إسْطَبلي بشكلٍ جيِّد أبداً، ولم يكن يتخلّصُ من القشِّ المتّسِخ أبداً. وما لبثَتْ أن فاحَتْ رائحةٌ كريهةٌ من الطبقةِ السُفلى من القشّ فوَخزَتْني عينايَ وفقَدْتُ شهيّتي. ثمّ تأذَّتْ أقدامي وأصبحَتْ طريّةً بسببِ الوقوفِ مُطوّلاً في الرُّطوبة. فبدأَتْ تَزِلُّ قدَمي. لقد قامَ هذان السائِسان بأكثر مما يضُرُّ بصحَّتي، فقد دفَعا بسيّدي إلى التخلّي عنّي كلّياً.

قالَ بغضبٍ: "بما أنني لا أستطيعُ أن أثقَ بأيِّ سائس، فسأستأجِرُ حِصاناً عند حاجتي إليه."

وهكذا باعَني في سوقِ الأحصِنةِ.

الفصل السابع

الحياة كحِصانٍ للأجرة

لدى وصولي إلى سوقِ الجيادِ صُدِمْتُ لحالةِ بعضِ الأحصِنةِ. يا لها من كائناتٍ مسكِينة! فقد كانَتْ دائماً ضعيفة بسببِ أعمالِها الشاقّة – رُكَبُها مثنيَّةٌ وأضلاعُها ناتِئةٌ وظهورُها وأوراكُها مُتقرِّحَة. ولكن من يدري ؟ قد أُصبحُ يوماً ما في مثل هذه الحالة !

طيلةَ النهارِ، كان الناس يأتون ليتفقّدونني لكنّهم لم يريدوا أن يدفعوا السِّعرَ كاملاً. وكان الأسيادُ يَشيحون بنظرِهم عنّي عندما يرَوْن رُكَبي المكْسورة. لكنَّ رجلاً واحداً أعجَبَني. كانتْ عيناهُ رماديّتينِ ونظرتُه طيِّبةً ومَرِحة. فقد لامَسَني بلُطْفٍ وتمنّيتُ أن يشتريني.

وبالفعل اشتراني وامتطاني طيلةَ الطريق إلى بيته – أي إلى لندن. وحين وَصلْنا، كانتْ قناديلُ الغازِ في الشارعِ مضاءةً. لم أكنْ قد رأيتُ قطُّ هذا الكمّ الكبير من الشوارعِ. وسُرعان ما دخلْنا إلى أحدِ الشوارعِ الفرعيةِ وكان يوجدُ على أحدِ جانبَيْها بيوتٌ فقيرةُ المظْهر وعلى الجانبِ الآخرِ الإسطبلات.

صَفَّر مالكي خارجَ أحدِ الأبوابِ فخرجَ بسرعةٍ امرأةٌ وطفلان. فصاحَ سيّدي قائلاً :

" هيّا يا هاري يا بُنيّ، افتحِ البوّابةَ."

وقادَني إلى حظيرةٍ صغيرة.

وسألَتِ الفتاةُ : "أهو لطيفٌ يا أبي؟"

فأجابَ : "نعم يا دولّي، إنّه لطيفٌ كقطّتكِ. تعالي وربّتي عليه. سوفَ ندعوه جاك."

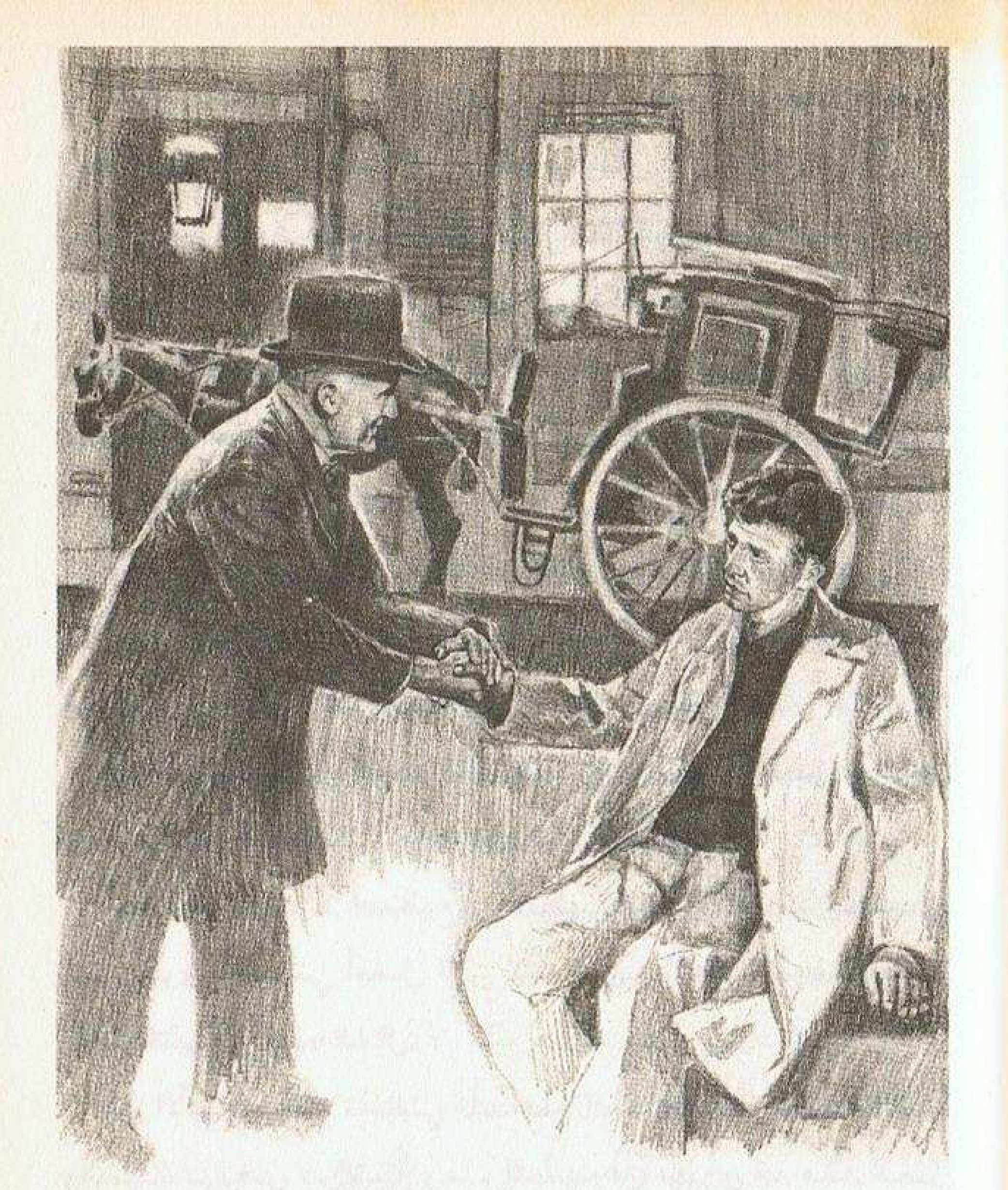
وربّتَتْ يدٌ صغيرةٌ على كَتِفي. يا له من شُعُورٍ رائعٍ!

كانَ سيّدي الجديدُ يُدعى جيريميا بايكر لكنّ الجميعَ كانوا يدعونَهُ جيري. لم أكُنْ قد رأيتُ قطُّ عائلةً سعيدةً كهذه، ولم أَرَ مثلَها منذ ذلك الحين. كان جيري يملكُ عربةَ أُجْرةٍ خاصةٍ به وحِصاناً آخرَ يُدعى كابتن، وهو حصانٌ كان يخدُمُ سابقاً في الجيش ولا بدّ من أنه كان رائعاً في شبابِه.

كان أسبوعي الأول كحصانِ عربةِ أجرةٍ صَعْباً جداً. فالضوضاءُ والسرعةُ وحشودُ الأحصنةِ والعرباتُ أثارَتْ قلقي وغضَبي. لكنّني سُرعانَ ما لاحظْتُ أنه بوسْعي أن أثقَ بسائِقي. فما لبثَ أن اكتشفَ أنني راغِبٌ في العملِ وأريدُ أن أبذُلَ كلّ طاقتي. فلم يَجْلِدْني قطّ. وفي فترةٍ قصيرةٍ فهِمَ أحدُنا الآخرَ على أفضلِ وجهٍ يُمكِنُ لحصانٍ وإنسانٍ أن يتفاهَما عليه.

كان سيّدي الجديد يغضَبُ حين يَطلبُ منه الناسُ أن يُسرِعَ إذا ما تأخّروا بسَبَبِ كسلِهم. لكنّه كان يُسرعُ دائماً إذا كان هناك سببٌ وجيهٌ لذلك. أذكرُ أنّه فيما كُنّا ذاتَ صباحٍ بانتظارِ ركّابٍ في موقفِ العرباتِ، انزلقَ رجلٌ شابٌ أمامَنا بقشرةِ ليمون، فساعدَهُ جيري على الوقوفِ. فقالَ له الشابُ :

"شكراً لك. هل يمكِنُكَ أن تُقلَّني الآنَ إلى محطّةِ ساوث إيسترن للقطارات؟ عليّ أن أستقلَّ قطارَ الساعةِ الثانيةِ عشر. سأدفعُ لكَ مبلغاً إضافياً بكلّ سرور."



فقالَ جيري بابتهاجٍ : "سأفعلُ ما بوُسْعي. إذا كنتَ تَظُنُّ أنكَ بخيرٍ للقيامِ بالرحلةِ فإنكَ تبدو متوعّكاً وشاحِباً جداً".

فقالَ الشابُ : "عليّ أن أذهبَ".

وبفضلِ جيري، أدركَ الشابُ قطارَه. ولم يقبلْ جيري أيَّ قرشٍ إضافيٍّ على الأجرةِ.

إلاّ أنّ تشبُّثَ سيّدي بآرائِهِ لم يُعجِبِ الجميع. وذاتَ صباحٍ، دخلَ رجلٌ يُدعى السيد بريغس إلى الحظيرةِ. وقالَ:

"صباحُ الخير. لقد جئتُ لكي أعقِدَ اتفاقاً معك. السيدةُ بريغس تريدك أنْ تُقِلَّها صباحَ أيامِ الآحادِ إلى الكنيسةِ."

لم ترُقْ هذه الفِكرة لجيري. فقالَ:

"شكراً لكَ يا سيدي لكنني أملكُ رخصةَ قيادةٍ لستةِ أيامٍ فقط ولا يمكِنُني أن أعملَ أيامَ الآحاد."

فقالَ السيد بريغس: "يمكنكَ أن تغيّرَ رُخصَتَكَ بسُهولةٍ."

أجابَ جيري: "كانت لديّ رُخصَةٌ لسبعةِ أيامٍ في ما مضى. وكان العملُ قاسياً عليَّ وعلى جيادي."

فقالَ السيّد: "إنني أتفهّمُ ذلك لكننا زبائنُ جيدون جداً. وستكونُ مسافةً قصيرةً للحصانِ. وسترتاحُ لبقيّةِ النهارِ."

أجابَ جيري: "لا أستطيعُ أن أتخلّى عن أيّامِ الآحادِ يا سيدي. إنني أقوى وصِحّتي أفضلُ الآنَ لأنه لديَّ يومٌ للراحة. فالجيادُ لا تتعبُ كثيراً في هذه الحال."

في الأسابيعِ الثلاثةِ التي تلتْ هذه المحادثة، لم يستخدمِ السيّد والسيّدة بريغس عربتَنا. وعَلِمَ الجميعُ أنّ جيري قد فقدَ أفضلَ زبائنِه. لكنّهُما لم يلبثا أن عادا إلينا، لأنهما لم يستطيعا أن يجدا أحداً أفضلَ منا!

كانَتْ حالتي جيدة جداً كحصانِ أجرة. فسائقي كان في نفس الوقت مالكي، وكان يعامِلُني معاملةً حسنة جداً. ولم أدركْ كم أنني محظوظٌ حتى اليوم الذي التقيتُ فيه بجينجر.

الفصل الثامن

جينجر المسكينة

ذاتَ يومٍ، فيما كُنّا ننتظرُ خارجَ أحدِ المنتزهاتِ حيث كانت تعزفُ فرقةٌ موسيقية، ركَنَتْ بقربِنا عربةٌ مهملةٌ وقديمة. حدّقْتُ بالحصانِ. وكانَتْ فرساً كستنائية اللون، عجوزاً ومُتعَبَة، لها وبرٌ لا يُعْتَنى به. وكانت عظامُها ناتِئة.

كنتُ آكلُ بعضَ العلفِ، فطيَّرَ الهواءُ بعضاً منه باتجاهِها فمدَّتِ المسكينةُ عنقَها الطويلَ والنحيلَ والتقطَتْه. ثمّ نظرَتْ من حولِها باحِثةً عن المزيد. وكانَ في عينيها الذابلتَيْن نظرةُ يأسٍ وقُنوط.

تساءلتُ: "أين رأيتُ هذه الفرس من قبل؟"

وفيما كنتُ أفكّرُ، حدّقَتْ بي الفرسُ وهَمسَتْ:

"بلاك بيوتي، أهذا أنت؟"

لم أُصدّقْ عينيّ! إنها جينجر. كم تغيَّرتْ! أصبحَ عنقُها المقوّسُ الآن مستقيماً ومُترهّلاً. وأصبحَتْ قوائمُها الممشوقةُ متورّمةً ومفاصِلُها في حالةٍ سيِّئة. أما وجهُها الذي كانَ في ما مضى مليئاً بالحيويةِ، فقد أصبحَ مليئاً بالمُعاناةِ. وكانت تسْعلُ باستمرارٍ، وكان نفَسُها كريهاً.

كان سائقانا واقفَيْن معاً، فاقتربْتُ منها لنتحدَّث بهدوءٍ. وكانتِ القصةُ التي حكَتْها ليَ حزينةً جداً.

سألتُها : "ما الذي حصلَ لكِ بعدما غادرتُ إيرشال؟"

فأجابَتْ : "أراحوني لمدّةِ سنةٍ ثمّ باعوني. كنتُ مع سيّدٍ لطيفٍ جداً لكنّه جعلَني أعملُ بكثرةٍ إلى أن اضْطُرِرْتُ إلى التوقُّفِ للراحة. وقد تمَّ بيعي عدّةَ مراتٍ لهذا السبب." ثمّ تنهدَّتْ وأضافَتْ : "لقد كانت حالي تتدهْورَ وتزيد سوءاً في كلِّ مرّة."

سألتُها : "كيفَ انتهى بكِ الأمرُ إلى هذا الوضعِ المأساوي؟"

فقالَتْ لي : "لقد اشتراني رجلٌ كان يؤجّرُ العَرَبات. إنّهم يستنفدونني الآن فحسب، إذ إنهم يَجْلِدونني ويجعلونني أكِدُّ وأكْدَحُ. ولا يفكّرونَ أبداً بما قد أكونُ أعاني منه. وأنا أظلُّ على تلك الحال طيلةَ أيامِ الأسبوعِ من دون أن أرتاحَ يومَ أحدٍ واحد."

فذكّرتُها بحزنٍ قائلاً : "كنتِ تدافعين عن نفسكِ إذا أسيئَتْ معاملتُكِ."

فقالَتْ : "آه، أجل، كنتُ أفعلُ ذلك في ما مضى. لكن لا فائدةَ من ذلك، فالإنسانُ أقوى منّا. إذا كانوا قُساةً فلا حَوْلَ لنا. علينا أن نتحمّلَ إلى أن..."

ترَقْرقَتِ الدموعُ في عينيها وأكملت كلامها : "...إلى أن نموت."

ثم خفَتَ صوتُها فأصبحَ هَمْساً وقالَتْ برقّةٍ :

"يا ليتَني أقعُ ميتةً خلالَ عملي."

كنتُ حزيناً. لامسْتُ أنفَها بأنفي لأخففَ عنها. إذ لمْ أكُن أعلمُ ماذا يُمكِنني أن أقول.

فهمسَتْ قائلة: "أنتَ الصديقُ الوحيد الذي حصلتُ عليه في حياتي كلها."

في تلك اللحظةِ، أتى سائقُها وشدَّ على لجامِها بقوّةٍ وقادَها مُبتعِداً. كنتُ فِعلاً حَزيناً جداً.

بعد أسبوعٍ أو أسبوعين من هذه الحادثةِ، مرّتْ أمامَ موقفِنا عربةٌ تحمِلُ حِصاناً ميتاً. كان الحصانُ الذي في الداخل كستنائيَّ اللون ذا عُنُقٍ طويلٍ ورفيع. كان رأسُه يتدلّى من حافةِ العربةِ، ولسانُه يقطر دماً، وعيناه غائرتَيْن في رأسِه. لا زلتُ أرتعِدُ حين أفكّر في ذلك. نظرتُ إلى العلامةِ البيضاءَ تحت جبينِ الحصانِ. وفكّرتُ في نفسي:

"لا بدّ أنها جينجر."

بكيتُ قليلاً. ثمّ فكّرتُ : "إنني مسرورٌ. فقد انتهى عذابُها الآن."

الفصل التاسع

يَوْم الانتِخابات

كانت الحماسَةُ في لندن شديدةً مثلما هي في البلدِ كلِّه. فموعِدُ الانتِخاباتِ باتَ قريباً. وقبلَ اليومِ المَوْعودِ، خرجَتْ بولي من المنزلِ مُسرعةً لدى وُصولِنا وقالَتْ:

"جيري، لقد جاءَ أحدُ رِجالِ الانتِخاباتِ للتوّ، إنّه يريدُ أن يسْتأجِرَ عربتَك في يومِ الانتخاباتِ ويأملُ أن تصوِّتَ لَهُ."

فدَمْدَمَ جيري قائلاً : "إنه يركُضُ إلى بيوتِ العامّةِ ليجدَ رجالاً نصفَ ثَمِلين ليصوِّتوا له. إنها إهانةٌ للأحصنةِ. لن أفعلَ ذلك!"

فسألَتْه بولي : "لكنّكَ بالطبعِ ستصوِّتُ للرجل، أليسَ كذلِكَ؟"

فقالَ جيري بعَزمٍ : "لا، لنْ أفعلَ. إنّه رجلٌ غنيٌّ لا يعرفُ ماذا يريدُ رجالُ الطبقةِ العاملةِ."

ونَظَرَ إلى بولي عابساً ثمّ قالَ :

"الانتخاباتُ أمرٌ بغايةِ الجدّيةِ، وعلى كلِّ امرِىءٍ أن يُصوّتَ لمَنْ يريدُ فِعلاً."

وبالطبعِ جَلَبَ لنا يومُ الانتخاباتِ العملَ الوفيرَ. وكان على جيري أن يعلِّقَ على رأسي مِخلاةَ الشوفانِ لأنه لم يكُنْ هناك متّسعٌ من الوقتِ لكي نتوقفَ للأكلِ. لكن بالنسبةِ إلينا نحن الجياد، فقد كان هذا النَّهارُ عَصيباً! كان الرجالُ الثمِلون يندفعون إلى قارعَةِ الطَريق، فصُدِمَ منهم شخصانِ ووقعا على الأرض.

تمْتَمْتُ في نفسي : "لا أريدُ أن أشهدَ يومَ انتِخاباتٍ آخر."

أذكُرُ كم كان سيّدي لطيفاً ذلك النهار، وليس تِجاهي فحسب. فقد لفتَتِ انتباهَه امرأةٌ شابّةٌ تقِفُ على حافّةِ الطريقِ وتحملُ طفلاً يَجْهَشُ بالبكاء. وسألَتْ جيري: "هل تعرف الطريقَ إلى مستشفى سانت توماس؟"

فأجابَها جيري : "لا تستطيعينَ أن تمشي إلى هناك وأنتِ تحمِلين طفلاً، لا سيّما بين هذه الحشودِ. إنها تبعُدُ أكثرَ من ثلاثةِ أميال."

فقالَتْ وهي تنظرُ من حولِها بتوتّرٍ : "بلى، بمقدوري أنْ أفعلَ ذلك. يا ليتني كنتُ أعرفُ أنَّ هناك انتخابات اليوم. لم أرَ قطّ حشوداً كهذه."

قالَ جيري : "قد يوقِعُكِ أحدُهم أرضاً. هيا ادخُلي إلى العربةِ وسأقلّك."

فقالَتْ المرأةُ : "لا يا سيدي. لا يُمكِنني أن أفعلَ ذلك، شكراً لك. ليس لديّ ما يكفي من المال."

قالَ جيري بلُطْفٍ : "اسمعي، أنا أيضاً لديّ زوجةٌ وأطفالٌ. سآخذُكِ إلى هناك من دون مقابلٍ."

فأجهشَتِ المرأةُ بالبكاءِ وفتحَ لها جيري بابَ العربةِ لتدخل. وفي تلك اللحظةِ، اندفعَ رجلانِ ودخلا إلى العربةِ.

صاحَ جيري : "لقد سبقَ أن حجزَتْ هذه السيّدة العربةَ!"

فقالَ أحدُهما : "يُمكنها أن تنتظر. فعملُنا أهمّ."

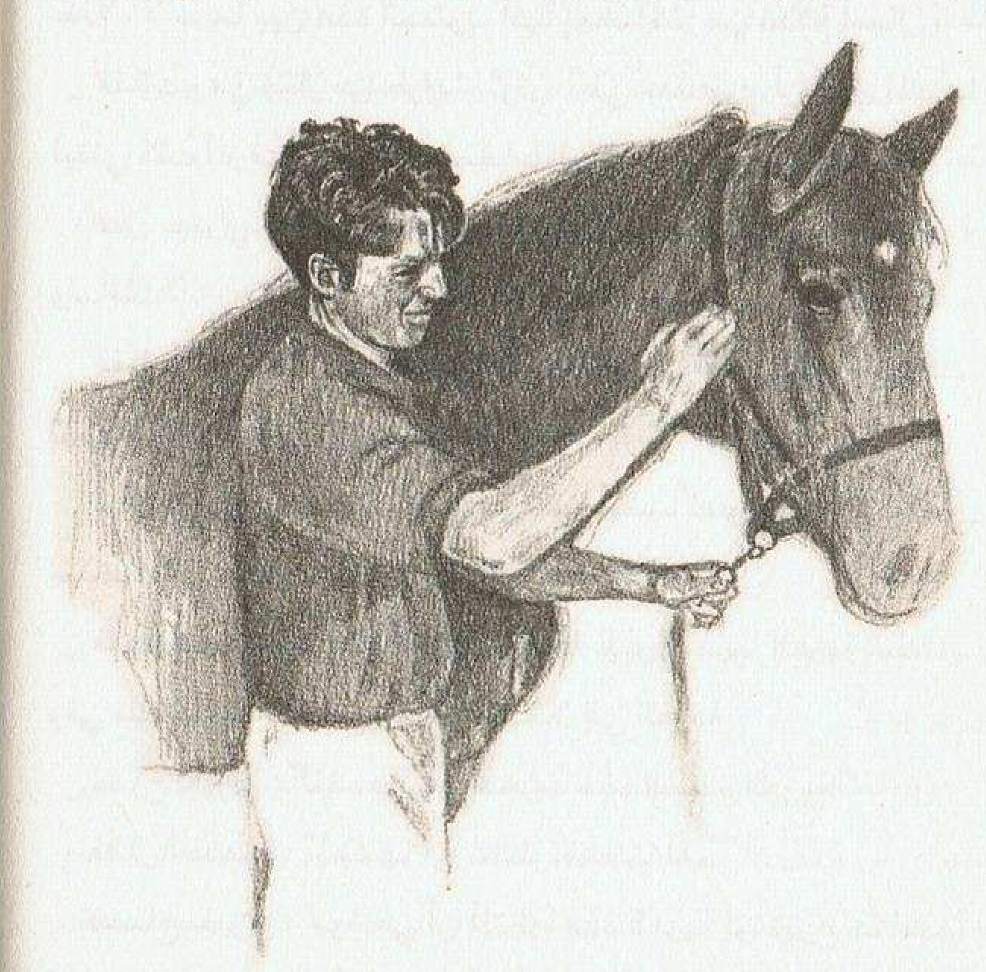
فصاحَ جيري : "بوسعي أن أنتظر. هذه العربةُ لن تبرَحَ مكانَها."

وما لبثَ الرجلان أن خرجا وهما يصْرُخان ويشْتُمان جيري. ثمّ انطلَقنا إلى المستشفى.

ولدى وُصولنا صاحتِ المرأةُ: "شكراً لك! شكراً لك! لم أكن أتمكّنْ من الوصول إلى هنا بمُفرَدي."

فقالَ جيري : "على الرحْبِ والسَّعة. أتمنى أن تتحسّنَ حالُ الطفلِ قريباً."

ثمّ ربّتَ على عُنُقي كما كان يفعلُ كلّما كان راضِياً عني. وأنا أيضاً كنتُ راضِياً عنه. لقد كان أفضلَ سيّدٍ حصلتُ عليه في حياتي.



الفصل العاشر

أوقاتٌ عَصيبة

حلّ أسبوعُ أعيادِ الميلادِ. لكن ما من يومِ عطلةٍ لسائقي العَرَباتِ وأحصِنتِهم. علينا أحياناً أن ننتظرَ ساعاتٍ في المطرِ أو الجليد، نرتجِفُ من البردِ فيما يرقُصُ الناسُ على وقعِ الموسيقى في الداخلِ.

عشيّة رأسِ السنة، كان جيري يسْعُلُ بكثرةٍ. كنا ننتظرُ سيّدين كانا يلعبانِ الورقَ حتى الساعةِ الحاديةِ عشر ليلاً فيما كان الهواءُ ينفخُ مَطراً متجمِّداً نحو وجْهَيْنا. وعندما غادرنا المكانَ بعد ساعتين، كان المرضُ قد اشتدّ على جيري.

في الأسبوعينِ التاليين، كان هاري يأتي ليُطعِمَني ويُنظّفني. فاشتقتُ لجيري وقلِقتُ عليه. ثمّ تحسّنَ حالُه ببطءٍ، لكنّ الطبيبَ منعَهُ من مُعاودةِ قيادةِ عرباتِ الأجرة. وذاتَ يوم، دخلَتْ دولّي إلى الإسطبلِ وهي تكادُ تتلعثمُ من الإثارةِ. وصاحَتْ بفرحٍ:

"آه، يا هاري، ما مِن شيءٍ أجملُ من ذلك! سوف نعيشُ في الريفِ مع حديقةٍ وشجرةِ تُفاحٍ."

فقالَ هاري : "هذا مناسبٌ، سأكونُ سائساً أو بُسْتانياً."

شعرتُ بحُزْنٍ شديد. فلمْ أعدْ شاباً وقد أضعفَني العملُ مدةَ ثلاثِ

سنواتٍ في جرِّ العرباتِ. فتمَّ بيعي إلى خبّازٍ قبلَ أن يُسمحَ لجيري بالنُّهوضِ من السريرِ بوقْتٍ كبير، ولم يتسنَّ لي توديعُه قطّ.

وكانتْ دولّي تنوحُ قائلة: "جاك المسكين! جاك المسكين! أتمنى لو كان بإمكانِنا أن نصطحبك معَنا." ثمَّ وضعَتْ وجهَها قربَ شعري وقبّلتْني.

في عمَلي الجَديد، كان عليّ أن أحمِلَ أوزاناً ثقيلةً جداً. والأسوأُ من ذلكَ كلِّه هو أنّ سائقي جايكس كان يشدُّ لجامي كثيراً. وذاتَ يومٍ، فيما كنتُ أجاهدُ لأَصْعَدَ بحِملٍ على تلّةٍ شديدةِ الانحدارِ اضطررتُ للتوقّفِ، فجلدَني جايكس.

وقالَ: "هيّا أيها الكسول".

بذلت جهدي مُجدَّداً فكان جايكس يجلدُني بقوّةٍ أكبر. كانت نفسي مجروحةً بقدرِ جسدي. وفجأةً سمعتُ صوتَ سيّدةٍ تقولُ:

"آه! أرجوكَ توقّفْ عن جلدِ حصانِكَ الطيّب. إنني واثقةٌ من أنه يبذلُ ما بوُسْعِه."

فقالَ جايكس: "عليه أن يقومَ بأكثرِ مما بوُسْعِه، هذا كلّ ما أعرفُه يا سيّدتي."

فنظرَتِ السيّدةُ إلى لجامي المَشْدود.

وقالَتْ: "لا يستطيعُ الحصانُ أن يستعملَ كلّ قوّتِه إذا كان رأسُه مَشْدوداً إلى الخلفِ بهذا الشكل. سأكونُ ممنونةً لكَ إذا نزعتَه عنه."

فضحِكَ جايكس قائلاً: "حسناً، إذا كان ذلك يُسرّك."

نزعَ اللجامَ عن رأسي وصعِدتُ التلّةَ بسهولةٍ أكبر.

فسألَتْه السيّدةُ: "لن تضعَ له هذا اللجام مُجَدَّداً، أليس كذلك؟"

فأجابَ: "إذا مشى بدونِها يا سيّدتي سأكونُ أضحوكةَ الناسِ. فهذه هي الموضة."

فقالَتِ السيدةُ: "أليسَ من الأفضلِ أن تبدأَ موضَةَ جديدة على أن تتّبعَ موضَةً سيِّئة؟"

بعدَ تلك الحادثةِ، كان جايكس يُرخي لي اللجامَ كلّما صَعِدْنا التلال لكنّ الحِمل كان دائماً ثقيلاً. وسُرعانَ ما أخذَ مكاني حِصانٌ أصغرُ منّي.

لن أنسى أبداً سيّدي الجديد. وكان يُدعى نيكولاس سكينر. كانت عيناه سوداوين وأنفه معكوفاً وفمُه مليئاً بأسنانٍ ضخمةٍ. وكان صوتُه أجشَّ كصوتِ دولاب العربةِ على الحَصَى. لم أعرفْ كم أنَّ حياةَ حصانِ عرباتِ الأجرةِ مُريعةٌ إلا في ذلك الحين. فلم أكنْ أرتاحُ أيامَ الآحادِ وكنتُ أُؤجَّرُ ساعةً بعد ساعةٍ. وقلّما كنتُ أرتاحُ أو آكل.

فتمنّيتُ لو أقعُ ميتاً خلال عملي، كما جرى لِعزيزتي جينجر. وذاتَ يومٍ، كادت أمنيتي تتحقّقُ.

كنتُ أقِلُّ عائلةً مع أمتِعتِها من محطّةِ القطار. وعلى الطريقِ، زلّتْ رِجْلي من تحتي. فانقطَعَتْ أنفاسي إثْرَ صدمةِ الوقوعِ ورقدتُ على الأرضِ من دون حِراكٍ. ظننتُ أنني سوف أموتُ.

قالَ أحدُ الأطفالِ: "آه! يا للحِصانِ المِسْكين! كلّ هذا بسَبَبِنا."

وقالَ شخصٌ آخر : "إنه ميّت. لنْ يقومَ مُجدَّداً."

لكنني لم أمُتْ، بل وقفْتُ على أقدامي مترنِّحاً وعُدْتُ إلى إسطبلِ سكينر.

فقالَ سكينر : "قد يتحسَّنُ – وقد لا يفعل. لا يناسبُ ذلك عملي. إنني أستخدمُ الأحصِنةَ طالما أنها تتحملُ، ثمّ أبيعُها."

كنتُ محظوظاً هذه المرّة. كان هناك مَعرِضٌ لبيعِ الأحصنةِ سيُقام بعدَ عشرةِ أيام. فتركَني مالِكي أرتاحُ خلالَها أملاً منه في أن يَجْني ثمناً أفضل. وبدأتُ أعتقدُ أنه من الأفضلِ أن أبقى حيّاً رغمَ كلِّ شيء. وفي المعرضِ، رفعتُ رأسي عالياً راجياً الأفضَل.

لاحظتُ رَجلاً عريض المنكبين وذا وجهٍ رقيقٍ ومتورّد. وكان هناك صبيٌّ صغيرٌ بقربِه. توجَّها نحوي. فوقفتُ هناك مُفْعَماً بالأملِ، فأنا لا زِلتُ أملكُ شعراً وذيلاً جميلين.

قالَ الرجلُ : "كانت لهذا الحصان أيامٌ أفضلُ من هذه يا ويلي."

قالَ الصبيُ : "يا للمسكين. أتظنُّ أنه كان يجرُّ العرباتِ يا جدّي؟"

فقالَ الجدُّ وهو يقتربُ منّي : "آه، أجل يا بنيّ. انظر إلى مِنْخرَيْه وأذنيْه وشكلِ عُنُقِه وكَتفيْه. إنَّ هذا الحِصانَ من عِرقٍ أصيل."

وربّت بلُطْفٍ على عنقي. ولاطفَ الصبيُّ وجهي ثمّ قال:

"إنني واثقٌ من أنه سوف يعودُ شاباً في مزرعتِنا يا جدّي."

فقالَ الجدُّ وهو يضحكُ : "يا عزيزي، لا يُمكنني أن أعيدَ الشبابَ إلى كلِّ الأحصنةِ."

فاستعطفَهُ الصبيُّ قائلاً : "أرجوكَ يا جدّي! إنه ليس مُسِنّاً جداً على الرغمِ من نُحُوله!"

أخرجَني المزارعُ لأعْدُوَ بعضَ الشيءِ. فقوّستُ عنقي المسكينَ والنحيلَ، ورفعْتُ ذيلي قليلاً، وأطلقْتُ أقدامي بأفضلِ صورةٍ ممكنةٍ إذ إنها كانت متيبّسةً جداً.

ثمّ حبَسْتُ أنفاسي وانتظرتُ.

* * * * *

مضَتْ سنةٌ منذ معرضِ الأحصِنَة. لقد اشتراني جدّ ويلي. وأنا عدْتُ شاباً وقوياً بالفعلِ في مزرعتِه. ثم وَجدَ لي بيتاً جيداً. فعدتُ أجرُّ العربةَ من جديدٍ، وذلك لآنستين تُدعيانِ الآنسة بلومفيلد والآنسة إلين. وفي نهاري الأول في حظيرتِهما، عندما كان سائسي الجديدُ ينظِّفُ وجهي، كانت لي مفاجأة.

تمتمَ السائسُ قائلاً: "هذه النجمةُ تشبه تماماً تلك التي

كان يملكُها بلاك بيوتي، وهو بنفسِ الطولِ أيضاً. أتساءَلُ أين هو الآن."

ونظرَ إليّ بإمعانٍ وقالَ:

"رِجلٌ بيضاء و- أجل، هناك بُقعةٌ صَغيرةٌ من الشعرِ الأبيض على ظهرِه. لا بدّ من أنّك بلاك بيوتي!"

وربَّتَ عليّ.

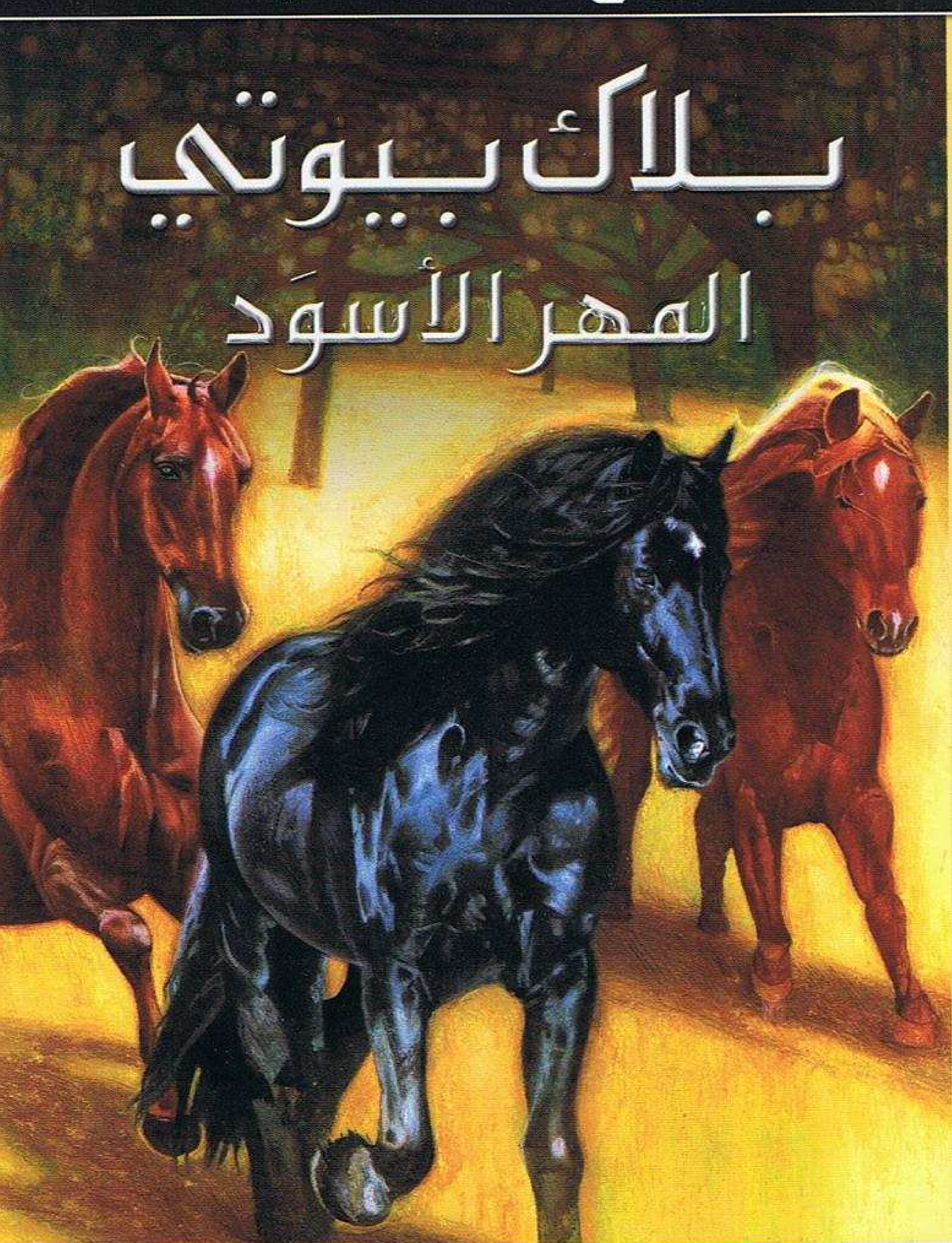
وأخذ يُردّدُ قائلاً: "ياه! يا بيوتي! يا بيوتي! هل تعرِفُني؟ جو غرين الصغير! كِدْتُ أقتلكَ!"

إنّ عملي سَهلٌ ومُرْضٍ. فجو من ألطَفِ السائسين. وويلي وجدّه يزورانني كلّما سَنحَتْ لهما الفرصةُ. أمّا مالِكتاي فقد وَعدَتا بألاّ تبيعاني أبداً.

لقد انتهَتْ مَتاعبي. أنا الآن سعيدٌ. في صباحِ كلِّ يوم وقبلَ أن أستيقظَ تماماً غالباً ما أظنُّ أنني لا أزالُ في بستانِ مزرعةِ بيرتويك، واقفاً مع أصدقائي القُدامى تحتَ شجرةِ التفاحِ.

هنا تنتهي قصّتي.

أروع القصص العالمية



أكاديميا